حولية الكوفة

دورية سنوية محكمة، تعنى بالدراسات والبحوث التراثية والمعاصرة المتخصصة بشؤون مدينة الكوفة ومسجدها المعظم
تصدر عن أمانة مسجد الكوفة والمزارات الملحقة به - العدد الاول - شهر رمضان - ١٤٣٢هـ / آيار - ٢٠١١م

١

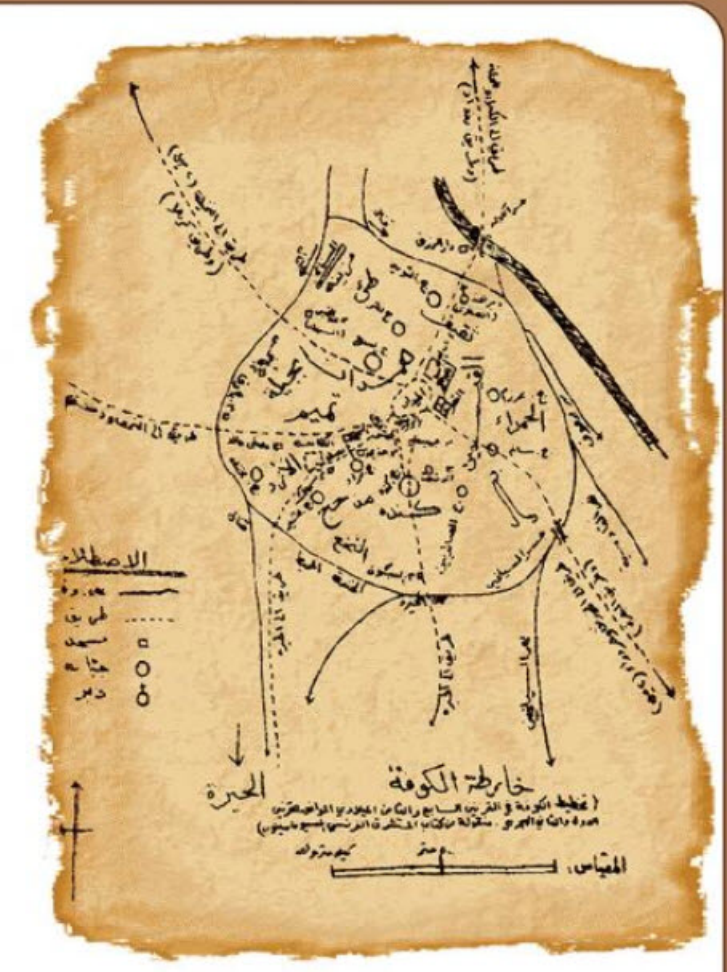

ديوان الوقف الشيعي
أمانة مسجد الكوفة
والمزارات الملحقة به

المشرف العام
السيد موسى تقي الخلخالي

رئيس التحرير
د. كامل سلمان الجبوري

النظام السياسي في الكوفة
في عهد الإمام علي عليه السلام

الدكتور جواد كاظم شايب
كلية الآداب/ جامعة القادسية

المقدمة:

إن نظرة الباحثين إلى علي عليه السلام قد تجاوزت الإطار الذاتي إلى الإطار المنهجي الفاعل في حركة المجتمع عبر التاريخ، فنحن لا ننظر إليه كشخصية ذاتية بل كرمز وشعار لكل المعاني الخيرة في الحياة، من هنا اكتسب ابن أبي طالب مجده، واعتلى ناصية الشمس ليدور معها ما دار الزمان، رؤية الحق، ومنهج الصدق، وحركة الجهاد، ونور اليقين، وشعاع المعرفة.

لقد دأب الكتاب والمؤرخون والشعراء، منذ الصدر الأول، في الإطناب بشجاعة الإمام علي عليه السلام وبطولاته الفذة مدافعا عن بيضة الإسلام ورسوله الكريم صلى الله عليه وآله في جميع الحروب والغزوات التي خاضها صلى الله عليه وآله في حياته، ابتداء من معركة بدر الكبرى، مرورا بحرب أحد وغزوة الأحزاب «الخندق»، وحرب حنين وغيرها من المعارك الطاحنة، وانتصاراته المؤزرة من السماء.

وبعد التحاق الرسول الأعظم بالرفيق الأعلى، وتسنم الإمام علي عليه السلام الخلافة بعد فترة ووقوفه بوجه المنحرفين الذين أشعلوا نار الحروب الثلاثة وهم الناكثون في البصرة - حرب الجمل- والقاسطون في صفين مع معاوية، والمارقون في النهروان- الخوارج - وللوقوف بوجه تلكم التيارات المنحرفة الضالة

وما نزل من القران الكريم في حقه: قيل نزلت في الإمام علي سبعون آية لم يشركه أحد فيها وقيل ثمانون وقيل ثلثمائة آية.

ولا يمكن لأحد إحصاء مناقبه وفضائله وشجاعته وقوته وجهاده في سبيل الله وسخاءه وجوده وحلمه وفصاحته وأخلاقه وسجوده وخطبه وفي الرأي والتدبير وفي القضاء والإدارة في السلم والحرب وغيرها.

ولد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام بمكة في بيت الله الحرام، ليلة الجمعة لثلاث عشرة ليلة خلت من رجب سنة ثلاثين من عام الفيل، ولم يولد قبله ولا بعده مولود في بيت الله الحرام سواه، إكراما له بذلك، وإجلالا لمحله في التعظيم.

أنت العلي الذي فوق العلى رفعا
ببطن مكة عند البيت إذ وضعا
أنت أنت الذي حطت له قدم
في موضع يده الرحمان قد وضعا

أما تفاصيل حادثة الولادة الميمونة فمروية في مصادر معتبرة كثيرة منها إلى سعيد بن جبير قال: قال يزيد بن قعنب: كنت جالسا مع العباس بن عبد المطلب وفريق من بني عبد العزى بإزاء بيت الله الحرام، إذ أقبلت فاطمة بنت أسد - أم أمير المؤمنين علي عليه السلام - وكانت حاملة به لتسعة أشهر، وقد أخذها الطلق فقالت: رب، إني مؤمنة بك وبما جاء من عندك من رسل وكتب، وإني مصدقة بكلام جدي إبراهيم الخليل، وإنه بنى البيت العتيق، فبحق النبي الذي بنى هذا البيت، وبحق المولود الذي في بطني لما يسرت علي ولادتي.

قال يزيد بن قعنب: فرأينا البيت وقد انفتح من ظهره ودخلت فاطمة فيه، وغابت عن أبصارنا، والتزق الحائط فرمنا أن ينفتح لنا قفل الباب فلم ينفتح، فعلمنا أن ذلك أمر من أمر الله عز وجل، ثم خرجت في اليوم الرابع وبيدها أمير المؤمنين علي عليه السلام، ثم قالت: إني دخلت بيت الله الحرام فأكلت من ثمار الجنة وأوراقها، فلما أردت أن أخرج هتف بي هاتف: يا فاطمة، سميه عليا فهو علي، والله العلي الأعلى ويقول: إني شققت اسمه من اسمي، وأدبته بأدبي، ووقفته على غامض علمي، وهو الذي يكسر الأصنام في بيتي، وهو الذي يؤذن فوق ظهر بيتي ويقدسني ويمجدني، فطوبى لمن أحبه وأطاعه، وويل لمن أبغضه وعصاه.

أما ألقابه وكناه ونعوته عليه السلام: منها: علي: أمير المؤمنين * إمام المتقين * يعسوب الدين * قائد الغر المحجلين * أبو الحسنين * أبو الحسن * أبو تراب * أبو السبطين * إمام البررة * قاتل الفجرة * حامل لواء الحمد * النبأ العظيم * باب مدينة علم النبي * قسيم الجنة والنار * الصراط المستقيم *

أبو اليتامى والمساكين * أخو رسول الله * خليفة رسول الله * وارث رسول الله * ولي كل مؤمن * الفاروق الأعظم * الصديق الأكبر * بعد رسول الله أرحم الناس بالرعية * أبصر الناس بالقضية * أشجع الناس قلبا * أحسن الناس خلقا * أصدق الناس لسانا * أعلم الناس حكما *

ومن حكمه:

١ - إلهي ما عبدتك خوفا من نارك، ولا طمعا في جنتك، ولكني وجدتك أهلا للعبادة فعبتدك.

٢ - لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقينا.

٣ - سلوني قبل أن تفقدوني، سلوني عن طرق السماوات، فإني أعلم بها من طرق الأرض.

٤ - التوحيد أن لا تتوهمه، والعدل أن لا تتهمه.

ومن كراماته الباهرة: أن الشمس ردت عليه لما كان رأس النبي ﷺ في حجره، والوحي ينزل عليه، وعلي لم يصل العصر، فما سرى عنه إلا وقد غربت الشمس، فقال النبي: يا علي، هل صليت العصر ؟ قال: لا. فقال النبي: اللهم إنه كان في طاعتك وطاعة رسولك، فاردد عليه الشمس، فطلعت بعدما غربت

أخرج الطبراني عن علي عليه السلام قال: إن خليلي رسول الله ﷺ قال: يا علي، إنك ستقدم على الله وشيعتك راضين مرضيين، ويقدم عليه أعداؤك غضاباً مقمحين.

وقال في الصواعق المحرقة في قوله تعالى: **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ** عن ابن عباس أن هذه الآية لما نزلت قال النبي لعلي عليه السلام: أنت وشيعتك تأتي يوم القيامة راضين مرضيين، ويأتي أعداؤك غضاباً مقمحين. فقال: ومن عدوي ؟ قال: من تبرأ منك ولعنك.

ومن أقوال الصحابة والتابعين فيه: في فضل علي بن أبي طالب عليه السلام بأقوال الصحابة والتابعين، وهم لولا جهاده وآثاره لكانوا في طي النسيان، وعالم الإهمال، وما قيمة ما ذكروه بعد قول الرسول الأعظم ﷺ له: يا علي ما عرفك إلا الله وأنا، وناهيك بهذا شرفا وفخرا. نذكر من كلماتهم:

قال أبو بكر لأمير المؤمنين عليه السلام: أمسيت يا ابن أبي طالب مولى كل مؤمن ومؤمنة، وقال عمر بن الخطاب: لولا علي لهلك عمر وقال أيضا: لا بقيت لمعضلة ليس لها أبو الحسن وقال أيضا: لا يفتين أحد في المسجد وعلي حاضرا وقال أيضا: علي أقضانا وقال أيضا: اللهم لا تبقني لمعضلة ليس لها ابن أبي طالب.

وقال عبد الله بن مسعود: كنا نتحدث أن أقضى المدينة علي بن أبي طالب وقال سعيد بن المسيب: ما كان أحد من الناس يقول سلوني غير علي بن أبي طالب و قال زيد بن أرقم: أول من صلى مع رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب (و قالت عائشة: ما رأيت رجلا أحب إلى رسول الله ﷺ منه، و قال أبو سعيد الخدري: كنا نعرف المنافقين ببغضهم عليا

عند دراسة واقع النظام السياسي في الكوفة في عهد الإمام علي ع، فإنه ينبغي اعتبار كل من جوانبها السياسية وهي المتعلقة بطرق الوصول إلى هذا الواقع والصراعات والتحولات التي رافقت ذلك، وجوانبها الدينية وهي المتعلقة بتشريع الأحكام وحفظها والاجتهاد فيها عن طريق الخلفاء، وذلك لما كان لهم على مر التاريخ الإسلامي من تأثير مباشر ليس فقط في التحليل والتحريم وصك الفتاوي، وإنما في تكون الفرق والمذاهب وانتشارها من جهة، وتحجيم بعضها والقضاء عليها من جهة أخرى.

ولا غرابة في ذلك باعتبار المكانة السامية التي أرادها الله (جل وعلا) لمنصب خلافة النبي ﷺ، بالإضافة إلى ما اجتمعت عليه الفرق والمذاهب الإسلامية في عدم الفصل بين الدين والدولة.

وفي الوقت الذي يفرض فيه المنطق الإسلامي جعل الدولة وسياساتها أداة لخدمة الدين الإلهي ووسيلة لتحقيق غاياته، فإن حكام المسلمين على مر التاريخ لم يلتزموا بالضرورة بهذا المبدأ، إن لم يكن قد عمل معظمهم ضده!

هذا البحث يد ور حول (النظام السياسي في الكوفة في عهد الإمام علي عليه السلام حيث قسمت بحثي هذا إلى مبحثين حيث تطرقت في المبحث الأول إلى الكوفة تاريخا وحضارة من حيث ماهية الكوفة والقضاء في الكوفة والمذاهب في الكوفة، وتطرقت في المبحث الثاني إلى النظام السياسي في عهد الإمام علي عليه السلام من حيث حكومة الإمام علي والشريعة ونظام الحكم والرؤية السياسية في الحكم والحكومة ومشروع السلام وفصل الجهاز القضائي والمعارضة ونظام الحكم.

وانه موضوع مهم لأنه يعرفنا بالنظام السياسي المتكامل في عهد الإمام علي عليه السلام وهو أنموذج حي ومثالي لكل الأنظمة السياسية في العالم.

واعتمدت على مجموعة من المصادر والمراجع أهمها: نهج البلاغة للإمام علي عليه السلام وتاريخ دمشق لابن عساكر والخلاف للطوسي وتحرير الأحكام للحلي والكامل لابن الأثير وتاريخ الكوفة للبراقي والحكم والإدارة لعلي الصلاح والإمام علي ومشكلة الحكم ومبادئ نظام الحكم في الإسلام لعبد الحميد متولي وغيرها،للوصول ما كنت أصبوا إليه وبالتالي تحقيق المبتغى.

المبحث الأول: الكوفة تاريخاً وحضارة

المطلب الأول: الكوفة:

مصرت الكوفة في زمن الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب عام ١٧ هلما دخلها الجند القادمون من المدينة إلى القادسية والمدائن، وكان سبب تمصيرها هو أن عمر بن الخطاب كتب إلى

سعد بن أبي وقاص يأمره أن يتخذ للمسلمين دار هجرة، ونزل بها جماعة من الصحابة والقبائل التي تألف منها العسكر[١].

وذكر ابن عساكر بسنده[٢]. عن عبادة عن جابر قال: سمعت عمر بن الخطاب سنة عشرين يقول الأمصار سبعة المدينة والشام ومصر والجزيرة والبحرين والبصرة والكوفة[٣].

وخططت الكوفة على أساس من التقسيم القبلي وتداولها عمال عمر بن الخطاب ومن بعده عثمان بن عفان، نحو: أبي موسى الأشعري، وعبد الله بن مسعود، وعمار بن ياسر، والمغيرة بن شعبة، وسعد بن أبي وقاص[٤].

وذكر ابن عساكر بسنده[٥].أنه قدر الكوفة فكانت ستة عشر ميلا وثلثي ميل وذكر أن فيها خمسين ألف دار للعرب من ربيعة ومضر وأربعة وعشرين ألف دار لسائر العرب وستة وثلاثين ألف دار لليمن وذلك سنة أربع وستين ومائتين[٦].

وعلى ضوء تواجد القبائل في الكوفة بنيت لمسجد الكوفة ابواب عدة وكان لكل قبيلة باب على اسمها، ولكن بتداول الأيام والحوادث الكارثة سدت أكثر هذه الأبواب وبقيت الأبواب الرئيسة ونذكر منها:

١- باب كندة: وهي من طرف يمين المسجد من جهة الغرب

٢- باب الفيل: وهي في الأصل تسمى باب الثعبان[٧].

٣- باب الأنماط: وهي تحاذي باب الفيل

وأصبحت الكوفة مرتعا للصحابة والتابعين، وأهل البيت على وجه الخصوص، والعلماء منهم والفقهاء والمحدثين والنحاة والشعراء والأدباء، فضلا عن كونها مركزا سياسيا وعسكريا بحكم انتقال عاصمة الدولة الإسلامية إليها، فهي تعد مركزا مهما من مراكز العلم والعلماء والمدارس الفكرية والعقدية ولاسيما التشيع طيلة الحكم الأموي والعباسي حتى القرون الوسطي، لكن نشاطها العلمي يبرز جليا في القرون الهجرية الثلاثة، وسيما في حقبة إمامة الصادق- عليه السلام، وأن مسجد الكوفة كان يعج بالعلماء والفقهاء والمحدثين، كلهم يقول: حدثني جعفر بن محمد عليه السلام.

وقال الحسن بن علي التجلي المعروف بالوشاء: «إني أدركت في هذا المسجد يعني مسجد الكوفة تسعمائة شيخ، كل يقول: حدثني جعفر بن محمد عليه السلام»[٨].

ويلحظ إن المعالم الحضارية في الكوفة أخذت تزدهر إذ أسهمت في القرار السياسي واستعادت مكانتها منذ نشأة الدولة العباسية زمن السفاح والمنصور حيث كانت بمثابة الحاضرة الخلافية، وخير من ترجم هذا النشاط حتى القرن ٣هـ/٩م ابن سعد إذ خصص له الجزء السادس من طبقاته، وبعدها أخذت تتقلص لاستقطاب جارتها الحاضرة بغداد العلماء والأيدي العاملة حيث أسباب العيش والدرس عالية.

وإثر مجيء السلاجقة إلى العراق سنة ٤٤٧هـ استعرت الخلافات المذهبية بين السنة والشيعة واستعين بالسلاجقة على الشيعة فانتهكت حقوقهم وممتلكاتهم حتى اضطر أبو جعفر الطوسي إلى أن يهرب ونهبت داره، ولما رأى الشيخ الخطر محدقا به هاجر بنفسه إلى النجف الأشرف ناحية الكوفة وصيرها مركزا للعلم، وكان هذا سببا مهما في استعادة الكوفة عافيتها إثر إقامة الشيخ الطوسي-٤٦٠هـ) مدرسته في النج[٩].

وذكر ابن عساكر من أحاديث الإمام الصادق عليه السلام في فضل فرات الكوفة قال: قال الصادق: إن نفقة الدرهم الواحد بالكوفة - في الصدقة - يعدل مائة درهم في غيرها والركعة بمائة ركعة ومن احب إن يتوضأ من ماء الجنة ويشرب من ماء الجنة ويغتسل بماء الجنة فعليه بماء الفرات فان فيه شعبتين من الجنة وينزل من الجنة كل ليلة مثقالان من مسك في الفرات، وكان أمير المؤمنين علي عليه السلام يأتي النجف ويقول: وادي السلام ومجمع أرواح المؤمنين ونعم المضجع للمؤمن هذا المكان أو كان يقول: اللهم اجعل قبري بها، قال أبو الغنائم في النجف ماء كبيت ينزله العرب يقال له السلام[١٠].

وكانت-من قبل- وفي أواخر العصر الراشدي قد حققت أول حضور لها على الصعيد السياسي والحضاري عندما انتقل اليها الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام وجعلها مركزا لخلافته، وكان هذا الازدهار في الكوفة على حساب الذبول الحضاري الذي اكتنف دار النبوة والخلافة الراشدة في المدينة المنورة.

(١) ابن عساكر: التاريخ الكبير ٤٤/١.

(٢) أبو بكر محمد بن عبد الباقي الحاسب - أبي محمد الحسن- علي الجوهري - أبو عمر بن حيوية - أبو أيوب سليمان بن إسحاق بن إبراهيم بن الخليل الحلاب - الحارث بن أبي أسامة- محمد بن سعد - محمد بن عمر الواقدي - يعقوب بن مجاهد أبو حزرة - عبادة بن الوليد.

(٣) ابن عساكر: تاريخ دمشق ١ /١٩٧.

(٤) أبي محمد علي بن احمد بن سعيد بن حزم ٤٥٦): المحلى تحقيق: احمد محمد شاكر، دار الفكر)، ٣ /١٥٤.

(٥) أبو الغنائم محمد بن ميمون - محمد بن علي بن الحسن الخشني - أبو الحسين محمد بن علي بن عامر الكندي البندار - علي بن الحسين بن إسماعيل بن صبيح البزار - بشر بن عبد الوهاب القرشي.

(٦) ابن عساكر: تاريخ دمشق ٢٩٧/١.

(٧) البراقي، حسين بن احمد النجفي ١٣٣٢هـ): تاريخ الكوفة، تح: ماجد بن احمد العطية انتشارات المكتبة الحيدرية) ٥٨.

(٨) الغفاري، الشيخ عبد الرسول: الكليني والكافي، قم، مؤسسة النشر الإسلامي) ٥٧.

(٩) الحكيم، حسن عيسى: الشيخ الطوسي، النجف الاشرف، مطبعة الآداب ١٩٧٥م)٣٦ وبعدها.

(١٠) ابن عساكر: تاريخ دمشق ٤٥/١.

ويضفي على الكوفة أهمية كبرى كونها تقع وسط العراق، كما أنها تحتل الموقع الوسط بين الحجاز والشام من جهة، وتطل على المدائن وبلاد فارس من جهة ثانية، كما أن هناك اعتبارات سياسية أخرى حددها أمير المؤمنين قبل نزوله فيها، وباتت الكوفة زمن أمير المؤمنين عليه السلام أكبر مدينة إسلامية شهدها العالم، وازدهرت فيها الحياة العلمية، والاقتصادية، والاجتماعية، بشكل واسع، وخير دليل على ذلك نزول كبار الصحابة فيها[1].

والكوفة هي البلدة المعروفة ودار الفضل ومحل الفضلاء بناها الخليفة عمر بن الخطاب أعني أمر نوابه ببنائها هي والبصرة وقيل سميت كوفة لاستدارتها تقول العرب رأيت كوفا وكوفانا للرمل المستدير وقيل لاجتماع الناس فيها تقول العرب تكوف الرمل إذا استدار وركب بعضه بعضا وقيل لأن ترابها خالطه حصى وكل ما كان كذلك سمى كوفة قال الحافظ أبو بكر الحازمي وغيره ويقال للكوفة أيضا كوفان بضم الكاف[2]، و في حديث سعد: لما أراد أن يبني الكوفة قال: تكوفوا في هذا الموضع، أي اجتمعوا فيه وبه سميت الكوفة، وقيل: كان اسمها قديما[3].

وقال ابن عساكر بسنده عن أبي بكر بن أبي داود قال سمعت أبا حاتم السجستاني قال لما كتب عثمان -رض- المصاحف حين جمع القرآن كتب سبعة مصاحف فبعث واحدا إلى مكة وآخر إلى الشام وآخر إلى اليمن وآخر إلى البحرين وآخر إلى البصرة وآخر إلى الكوفة وحبس بالمدينة واحدا[4].

وذكر ابن عساكر عن شيوخة قال: سألت الصادق عليه السلام عن قول الله عز وجل ﴿**وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ**﴾[5]. قال الربوة النجف والقرار المسجد والمعين الفرات ثم قال إن نفقة بالكوفة الدرهم الواحد يعدل بمائة درهم في غيرها والكوفة فسطاط الإسلام[6]. و قبة الإسلام بالكوفة[7]. وكان أمير المؤمنين علي عليه السلام يأتي نجف الكوفة ويقول وادي السلام ومجمع أرواح المؤمنين ونعم المضجع للمؤمن هذا المكان وكان يقول اللهم اجعل قبري بها قال أبو الغنائم في النجف ماء طيب تنزله العرب يقال له السلام[8].

(١) ابن الأثير: النهاية ١٣٥/٢، الغفاري، عبد الرسول: الكليني والكافي ٧١.
(٢) النووي: شرح مسلم ١٧٥/٤.
(٣) الشيخ الطوسي، أبو جعفر محمد بن الحسن ٤٦٠ هـ: الخلاف قم، مؤسسة النشر الإسلامي) ١ /١٧.
(٤) ابن عساكر: تاريخ دمشق ١ /٢٠١.
(٥) سورة المؤمنين: الآية ٥١.
(٦) ابن عساكر: تاريخ دمشق ١ /٢١٣.
(٧) ابن عساكر: تاريخ دمشق ٢٩٤/١.
(٨) ابن عساكر: تاريخ دمشق ٢٩٦/١.

وذكر ابن عساكر بسنده عن سعيد بن الوليد الهجري عن أبيه قال: قال علي عليه السلام وهو بالكوفة: ما أشد بلايا الكوفة لا تسبوا أهل الكوفة فو الله إن فيهم لمصابيح الهدى وأوتاد ذكر ومتاع إلى حين والله ليدقن الله بهم جناح كفر لا ينجبر أبدا إن مكة حرم إبراهيم والمدينة حرم رسول الله صلى الله عليه وآله والكوفة حرمي ما من مؤمن إلا وهو من أهل الكوفة[9].

وقال البراقي عن ابن حوق[10]: مدينة الكوفة قريبة من مدينة البصرة في الكبر، هواؤها اصح وماؤها أعذب وهي على الفرات، بناؤها كبناء البصرة، وهي خطط لقبائل العرب، وان ضياع الكوفة قديمة جدا وضياع البصرة إحياء موات في الإسلام[11].

وذكر البراقي عن القزويني[12]: هي التي مصرها الإسلاميون بعد البصرة بسنتين، يأتيها الماء بعذوبة وبرودة، ومما نقم على أهل الكوفة أنهم طعنوا الحسن بن علي عليه السلام وقتلوا الحسين عليه السلام بعد أن استدعوه[13].

واشتهر الخط الكوفي دون غيره في صدر الإسلام لان الإسلام مبعث حضارة العرب، والأساس الأعظم في تمدنهم، والخط إنما هو من لوازم الحضارة وتوابع العمران، حيث تلاشى الخط الحميري وحل محله الخط الكوفي[14]، وجدت هذه الكتابة على إحدى قبور الكوفة، غير انه لم تؤرخ كي يتضح لنا عهدها على التحقيق[15].

ويقول ابن خياط في سنة ١٧هـ رجع المسلمون من واقعة جلولاء فنزلوا المدائن فشكا الجند إلى الخليفة عمر من كثرة البعوض لأن الإبل لا تطيق أرضا فيها بعوض فخرجوا قاصدين الحيرة وعندما دخلوا على مشارف الحيرة لقوا رجل يدعى نفيل الغساني فقال لسعد ابن وقاس أدلكم على ارض لا يوجد فيها بعوض فدلنا على الكوفة ونزلوا بالكوفة وبنى سعد ابن أبي وقاس مسجدا وكتب إلى الخليفة عمر إني نزلت مكانا بين الحيرة والفرات وقد وجهه الخليفة عمر انتم رأس العرب وانتم سهمي الذي ارمي به من ها هنا وها هنا[16].

(٩) ابن عساكر: تاريخ دمشق ٢٩٧/١.
(١٠) الرحالة المؤرخ ابن حوقل، أبو القاسم محمد بن علي البغدادي الموصلي ٣٥٠هـ)، كان تاجرا، سافر إلى الأندلس، له كتاب المسالك والممالك أو صورة الأرض.
(١١) البراقي: تاريخ الكوفة ١٣٣.
(١٢) هو حمد الله بن اتابك بن حمد المستوفي ٧٥٠هـ(له نزهة القلوب فارسي)، وتاريخ كزيدة.
(١٣) البراقي: تاريخ الكوفة ١٣٣.
(١٤) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد ٧٣٢-٨٠٨هـ): تاريخ ابن خلدون بيروت، دار الفكر العربي) ٤١٨/١.
(١٥) البراقي: تاريخ الكوفة ١٣٣.
(١٦) التاريخ ٩٦.

المطلب الثاني: القضاء في الكوفة:

كان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام يقضي بالكوفة في الجامع، ودكة القضاء معروفة إلى يومنا هذا، وهو إجماع الصحابة وروي أن عمر بن الخطاب وعثمان كانا يقضيان في المسجد بين الناس[١].

وكان القاضي: يتخذ حاجبا وقت القضاء وأن يجعل المسجد مجلسا للقضاء دائما، ولا يكره لو اتفق نادرا، وقيل: لا يكره مطلقا التفاتا إلى ما عرف من قضاء علي عليه السلام بجامع الكوفة، وأن لا يقضي وهو غضبان، وكذا يكره مع كل وصف يساوي الغضب في شغل النفس، كالجوع والعطش والغم والفرح والوجع، وغلبة النعاس ولو قضى والحال هذه، نفذ إذا وقع حقا، وأن يتولى البيع والشراء بنفسه وكذا الحكومة، وأن يستعمل الانقباض المانع من اللحن بالحجة. وكذا يكره اللين، الذي لا يؤمن معه من جرأة الخصوم، ويكره أن يرتب للشهادة قوما دون غيرهم، وقيل: يحرم، لاستواء العدول في موجب القبول، ولان في ذلك مشقة على الناس بما يلحق من كلفة الاقتصار وهنا مسائل: الأولى الإمام علي عليه السلام يقضي بعلمه مطلقا وغيره من القضاة يقضي بعلمه في حقوق الناس وفي حقوق الله سبحانه، على قولين هما القضاء ويجوز أن يحكم في ذلك كله، من غير حضور شاهد يشهد الحكم[٢].

و يستحب إن يجلس للقضاء في موضع بارز كرحبة أو فضاء ليسهل الوصول إليه وان حكم في المسجد صلى فيه ركعتين عند دخوله تحية ويجلس مستدبر القبلة ليكون وجه الخصوم إليها وقيل يستقبل القبلة لقوله عليه السلام خير المجالس ما استقبل به القبلة ولا يكره الحكم نادرا في المسجد وهل يكره دائما قيل لا لقضاء علي عليه السلام بجامع الكوفة ويكره اتخاذ حاجب وقت الحكم إذا جلس للحكم

يستحب له أن يكون على أكمل حال وأعدلها ولا يجلس على التراب ولا على بادية المسجد ويكون عليه سكينة ووقار ولا يستعمل الانقباض المانع عن النطق بالحجة ولا اللين المخوف معه جرأة الخصوم وله أن ينتهر الخصم إذا التوى ويصح عليه ويعزره أن استحق التعزيز وان حصلت منه إساءة أدب كقوله حكمت علي بغير الحق أو ارتشيت فله التأديب والعفو و يستحب ان يجلس وهو خال من الغضب والجوع الشديد والعطش والفرح الشديد والحزن الكثير والهم العظيم والوجع المؤلم ومدافعة احد الاخبثين والنعاس والغم ليكون اجمع لقلبه واحضر لذهنه وابلغ في تفطنه وأكثر لتيقظه

(١) الطوسي: الخلاف ٢١١/٦.

(٢) المحقق الحلي: شرائع الإسلام في مسائل الحلال والحرام، قم، انتشارات استقلال طهران، العلمية ١٤٠٩هـ) ٨٦٦/٤.

ولو قضى والحال هذه نفذ حكمه أن كان حقا هيستحب إذا ورد البلد أن يبدأ أولاً بأخذ ما في يد الحاكم المعزول من الحجج والقضايا المودعة عنده ويأخذ الوديع التي أودعت لأجل الحكم ثم يسأل عن أهل السجن[٣].

ويبعث ثقة يكتب اسم كل محبوس وسبب حبسه واسم غريمه ثم ينادى ثلاثة أيام بان القاضي ينظر في أمر المحبوس يوم كذا فإذا كان يوم المواعدة ترك الرقاع بين يديه ثم أخذ رقعة ونظر إلى اسم المحبوس وطلب خصمه فإذا حضر اخرج المحبوس من السجن ونظر بينه وبين غريمه ولا يسأل الغريم من سبب الحبس لان الظاهر أن الحاكم إنما حبسه بحق ثم يسأل المحبوس عن ذلك فان قال حبسني بحق حال أنا ملى به قال له الحاكم اخرج إليه منه وإلا رددتك إلى السجن وان قال أنا معسر به سأل خصمه فان صدقه أطلقه وان كذبه وكان الحق مالا طلب من المحبوس البينة بالإعسار وكذا لو عرف له مال وادعى تلفه وان لم يعرف له أصل مال ولا كانت الدعوى مالا طلب البينة من الغريم فان فقدها احلف المحبوس على الإعسار وأطلق وان أقام الغريم بينة وبان له مال افتقر إلى تعينه فان صدقها طولب بالحق وان قال إن هذا المال في يدي لغيري سئل عن التعيين فان كذبه المقر له طولب بالحق فان صدقه احتمل القبول لان البينة شهدت لصاحب اليد بالملك فتضمنت شهادتها وجوب القضاء منه ولا يلزم من سقوط الشهادة في حق نفسه لإنكاره سقوطها فيما تضمنه ولأنه متهم في إقراره لغيره ولو لم يظهر للمحبوس غريم وقال حبسني الحاكم ظلما أشاع أمره فان لم يظهر له خصم أطلقه قال الشيخ[٤].

بعد أحلافه وفى مدة الإشاعة لا يحبس ولا يطلق بل يراقبه والأقرب انه لا يطالب بكفيل ببدنه ولو ظهر خصم وادعى أن الحاكم حبسه لأجله وصدقه فالحكم كما تقدم وان أنكر المحبوس فان أقام المدعى بينة انه خصمه وانه حبسه حكم عليه وان لم يكن معه بينة أطلقه بعد الأحلاف لأنه لا خصم له ثم يسأل عن الأوصياء على الأيتام والمجانين والمساكين ويعتمد معهم ما يجب من تضمين أو أنفاذ أو إسقاط ولاية لبلوغ اليتيم ورشد المجنون أو ظهور جنايته أو ضم مشارك إن عجز الوصي فان الصغير والمجنون لا قول لهما والمساكين لا يتعين لأحد منهم فإذا حضر الوصي عنده فان كان الحاكم قبله أنفذ وصيته لم يعزله لان الحاكم لم يعزله وما نفذ وصيته إلا بعد معرفته بالصلاحية في الظاهر ولكن يراعيه فان تغيرت حاله بفسق عزله وان كان يعجز أضاف إليه آخر وان كان الأول لم ينفذ وصيته نظر فيه فان كان

(٣) المحقق الحلي: تحرير الأحكام ١٨٠/٢.

(٤) الشيخ الطوسي: الخلاف ٢١١/٧.

أمينا قويا اقره وان كان ضعيفا ضم إليه غيره وان كان فاسقا عزله واستدل به غيره فان كان الوصي قد تصرف وفرق الثلث حال فسقه فان كان أهل الثلث بالعين عاقلين معينين وقعت التفرقة موقعها لأنهم قبضوا حقوقهم وان كانوا غير معينين كالفقراء والمساكين قال الشيخ[1]. رحمه الله عليه الضمان لأنه ليس له التصرف ويحتمل عدم الضمان لأنه أوصله إلى أهله وكذا إن فرق الوصية غير الموصى إليه بتفريقها والأقرب ما قاله الشيخ رحمه الله أما لو تصرف في مال الوقف على المساجد والمشاهد والمصالح من ليس له أهلية الحكم فانه يكون ضامنا وان كان قد صرفه في وجهه إذا لم يكن الواقف ولا الحاكم جعلا له النظر فيه وينظر في أمناء الحكم وهو من رد الحاكم إليه النظر في أمر الأطفال وحفظ أموالهم وأموال المجانين وتفرقة الوصايا التي لم يعين لها وصي والحافظون لأموال الناس من وديعة أو مال محجور عليه فان كانوا صالحين كذلك اقرهم ولاستبدل بهم إن فسقوا وضم إليه غيرهم إن عجزوا ثم ينظر في اللقطة والضوال التي تحت نظر الحاكم فيبيع ما يخشى تلفه وما يقتضيه المصلحة كالمحتاج إلى نفقة تستوعب قيمته ويحفظ ثمنها لأربابها ويحفظ مثل الإثمان والجوهر على أربابها ليدفع إليهم إن ظهروا و ينبغي للحاكم أن يحاضر

أهل العلم وان يشهد حكمه ممن يثق بفطنته منهم[2].

أول من ولي القضاء بالكوفة عروة بن الجعد البارقي وسلمان بن ربيعة الباهلي وشريح بن الحارث الكندي وأبو بردة بن أبي موسى الأشعري والشعبي عامر بن شراحيل الهمذاني والقاسم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود ومحارب بن دثار السدوسي وسعيد بن أشوع الهمداني وعيسى بن المسيب البجلي والحسين بن الحسن الكندي وغيلان بن جامع المحاربي والحجاج بن عاصم المحاربي ثم ابن أبي ليلى محمد بن عبد الرحمن الأنصاري ثم عبيد بن عبد الله بن عيسى ابن بنت أبي ليلى ثم شريك بن عبد الله النخعي ثم القاسم بن معن بن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود ثم نوح بن دراج النخعي ثم حفص بن غياث النخعي ثم الحسن بن زياد اللؤلؤي ثم إسماعيل بن حماد ابن النعمان بن ثابت والنعمان هو أبو حنيفة التيمي ثم بكر بن عبيد وعبيد هو عبد الرحمن بن عبد الله بن عيسى بن عبد الرحمن بن أبي ليلى الأنصاري[3].

المطلب الثالث: المذاهب في الكوفة:

نشأت الكوفة نشأة إسلامية خالصة ولكن منذ العصر الأموي ونتيجة للتطور الفقهي والفكري في العالم الإسلامي برزت مذاهب فقهية متعددة هي:

أولا: المذهب الشيعي

انتقلت الدراسة الفقهية الشيعية من المدينة إلى الكوفة(وأصبحت الكوفة) مركز الإشعاع في البحث الفقهي الشيعي)، تأثر البحث الفقهي كثيرا بهذا المحيط الجديد المزدحم بفقهاء الشيعة، كما تأثر الفقه الشيعي) بدون ريب حينما انتقل من بغداد) إلى النجف ظاهر الكوفة وكون هذا الإطار الحضاري، والفكري الجديد الذي كانت تزدحم جوانبه بمختلف المدارس الثقافية، والعلماء والفقهاء: من مختلف المذاهب الإسلامية[4].

وحينما نضيف المدرسة الفقهية إلى قطر خاص كالكوفة، أو بغداد أو المدينة لا نعني أن المدارس تمركزت كليا في هذا الأقطار، وأن رواد هذه المدرسة لم يتجاوزوا هذه النواحي قط ولم يؤثروا في تكوين المدرسة من أقطار أخرى. وإنما نعني أن المدرسة بلغت نضجها الخاص، وكمالها المرحلي في هذا القطر بالخصوص، وكان لها الأثر الكبير في تكوينها وبلورتها، وإن دخلت أقطار أخرى في البين، وتركت آثارا في تكامل المدرسة)[5].

الإمام جعفر الصادق عليه السلام (ت١٤٨هـ)

انتشر الإسلام في عصر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في الجزيرة العربية، كما انتشر بعد رحيله في شتى الأقطار وما ذلك إلا لأنه دين الفطرة، يدعو إلى عبادة رب واحد، لا شريك له، ونبذ عبادة الأصنام، والحجر والبشر، وإلى العدل والمساواة، وكل عمل وخلق حسن، وينهى عن كل خلق وعمل قبيح، إلى غير ذلك مما يرفع الإنسان عن حضيض الحيوانية إلى ذروة الكمال. ووالاه التشيع في الانتشار بسرعة في الأقطار الإسلامية، وما ذلك إلا لأن أكثر المهاجرين والأنصار كانوا يشايعون عليا عليه السلام ويحاربون معه، ويقفون معه في صف واحد خصوصا في الحروب التي وقعت في أيام خلافته. فبعد ما نزل الإمام علي عليه السلام بالكوفة، انتشر التشيع في العراق. ولما غادر الإمام الصادق عليه السلام المدينة المنورة ونزل بالكوفة أيام أبي العباس السفاح حيث بقى فيها مدة سنتين، فعمد الإمام إلى نشر علومه، وتخرج على يديه الكثير من العلماء. فقويت شوكة التشيع وهذا الحسن الوشاء يحكي لنا ازدهار مدرسة الإمام في العراق في تلك الظروف ويقول: أدركت في هذا المسجد يعني مسجد الكوفة تسعمائة شيخ كل يقول: حدثني جعفر بن محمد[6]. وقد كان لهذه المدرسة العظيمة للإمام أكبر تأثير في انتشار التشيع في أقطار العالم وإن كانت جذوره

(١) الشيخ الطوسي: الخلاف ٢١٣/٨.

(٢) المحقق الحلي: تحرير الأحكام ١٨٢/٢.

(٣) ابن عساكر: تاريخ دمشق٩٧/٤٩.

(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ١٠ / ٥٨.

(٥) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ١٠ / ٥٩.

(٦) النجاشي: الرجال٤٠.

موجودة قبل الإمام الصادق عليه السلام في الشام ومصر وغيرهما و قد بلغ من انتشار التشيع بواسطة مدرسة الإمام أنه أصبح قسم من البلدان الإسلامية، شيعية أو يوجد فيها التشيع خصوصا في ثالث القرون وما بعده. ومع أن الشام كانت معقل الأمويين ودار خلافتهم نرى إن التشيع قد دب فيها دبيب الماء في الورد، فما من بلدة أو قرية إلا وفيها نجم لامع من علماء الشيعة يقتفي أثر أهل البيت وينادي بموالاتهم التي نص القرآن الكريم عليها وقد كان لسماع كلمة أهل البيت جاذبية خاصة في قلوب المسلمين حيث يحنون إليهم حنان العاشق للمعشوق، خصوصا إنهم كانوا يصلون على أهل بيت محمد وآله واعترته في كل يوم وليلة تسع مرات. وهذا يدل على احتلال أهل البيت مقاما كبيرا فلو كانوا أناسا عاديين لما أمر المسلمون قاطبة بالصلاة عليه وهذا الأمر يدفعهم إلى التعرف عليهم و الاعتناء بشأنهم. ولهذا وذاك، قوي انتشار التشيع والموالاة لائمة أهل البيت في أكثر الأقطار الإسلامية حتى في معاقل الأعداء ودار خلافتهم حلب الشهباء[١].

كانت الصلة بين شيعة حلب وشيعة الكوفة وثيقة جدا ولأجل ذلك نرى إن بعض البيوت العراقية ينتسب إلى حلب وما ذلك إلا لوجود الصلة التجارية أو العلمية بين البلدين فهذا هو عبيد الله بن علي بن أبي شعبة المعروف بالحلبي وما هو إلا أنه كان يتجر هو وأبوه وإخوته إلى حلب فاشتهروا بالحلبيين. وعبيد الله هذا من فقهاء الشيعة في القرن الثاني وله كتاب يرويه أصحابنا عنه ورواياته مبثوثة في المعاجم التحديثية. هذا بعض ما كان للشيعة من الشأن في تلك التربة الزاهرة وأما مصيرهم في القرون فقد حدث عند المؤرخون وقد مر تصريح بعضهم بما جرى على شيعة آل البيت من المجازر فيها. ولنشر إلى النزر اليسير منها ونترك الكثير إلى مجال آخر. إن تاريخ الشيعة تاريخ دموي حيث إنهم عاشوا بين الخوف والرجاء، وبين الحجر والمدر وقد تعامل معهم الأمويون والعباسيون بشكل يندى له جبين البشرية فلم يكن السبب للفتك بهم إلا عدم تحالفهم مع الظالمين ومع ذلك فبقاء الشيعة اليوم يعد من أكبر المعاجز ومن خوارق العادات إذ لم يشهد التاريخ أمة أصابتهم النوائب و المظالم والقتل الذريع مثل ما أصابت شيعة أهل البيت ومواليهم[٢].

وقد أدرك الحسن بن على الوشاء في عصر واحد ٩٠٠ رجل في مسجد الكوفة كلهم يقول حدثني جعفر بن محمد عليه السلام وقد أحصى الشيخ أبو العباس «ابن عقدة» الثقات من أصحاب الإمام الصادق فصاروا أربعة آلاف[٣].

(١) ابن زهرة الحلبي: غنية النزوع ص ٣.
(٢) ابن زهرة الحلبي: غنية النزوع ص٩.
(٣) الحلي: الجامع للشرايع ص ٧.

الشيخ الطوسي

محمد بن الحسن بن علي أبو جعفر الطوسي، ولد في شهر رمضان عام ٣٨٥ هـ- أي بعد أربع سنوات من وفاة الشيخ الصدوق المتوفى عام ٣٨١ هوبعد ذلك وعلى أثر حدوث الاختلافات الشديدة بين السنة والشيعة، وتبدل الأوضاع السياسية، وانتقال الحكم من آل بويه الذين كانوا شيعة إلي السلاجقة السنيين، انتقل إلى النجف الاشرف أبرز علماء الامامية في القرن الخامس الهجري[٤]. فقيه الشيعة ومصنفهم كان ينتمي إلى مذهب الشافعي، له تفسير القرآن وأملى أحاديث وحكايات تشتمل على مجلدين، قدم بغداد وتفقه على مذهب الشافعي، وقرأ الأصول والكلام على أبي عبد الله محمد بن محمد بن النعمان المعروف بالمفيد، فقيه الإمامية، وحدث عن هلال الحفار، روى عنه ابنه أبو علي الحسن، وقد أحرقت كتبه عدة نوب بمحضر من الناس، توفي بالكوفة سنه ستين وأربعمائة نعم إن الشيخ الطوسي تفقه على مذهب الشافعي، وبقية المذاهب الأخرى كالحنفية، والمالكية، والحنابلة، والظاهرية وغيرها[٥]. وهكذا أمضى الشيخ الطوسي ٤٠ عاما - من ٤٠٨ هإلى ٤٤٨ - في بغداد، كان القسط الأكبر منها في مجال تحصيل العلوم، والباقي لزعامته وتدريسه. وقد كان في نفس الوقت مشغولا بالتأليف بالإضافة إلى الدرس والتدريس ولقد تابع جهده العلمي في مدينة النجف الصغيرة التي تبعد عن الكوفة فرسخا واحدا. وكانت النجف تقريبا في ذلك الوقت قد أصبحت موئلا يقصده طلاب العلم لمتابعة درسهم بالقرب من مرقد الإمام علي عليه السلام. و في تاريخ ٢٢ محرم عام ٤٦٠ هوبعد انقضاء ٧٥ سنة من عمر ملئ بالمشاغل العلمية وتربية مئات العلماء وتأسيس وتقوية أقدم الحوزات العلمية للشيعة الامامية، وبعد تأليف وتصنيف حوالي ٥٠ كتابا ورسالة في مختلف الفنون، أنهى الشيخ الطوسي حياته العلمية، ودفن في منزله الخاص الواقع شمالي البقعة المطهرة العلوية، والذي تحول فيما بعد إلى مسجد بناء على وصية منه قدس سره. ويعرف حاليا بمسجد الشيخ الطوسي. وبذلك كانت مدة إقامته في النجف الاشرف ١٢ سنة - أي من ٤٤٨ إلى ٤٦٠ هـ توفي أبو جعفر الطوسي، فقيه الإمامية بمشهد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام[٦].

كتبه ومؤلفاته: امتاز الشيخ الطوسي قدس سره بكثرة التأليف القيمة، والتصانيف الجيدة، الغنية عن كل إطراء وثناء، فبزغت

(٤) الشيخ الطوسي: الخلاف ١٢/١، الشهيد الثاني: شرح اللمعة الدمشقية ٢٣/١.
(٥) الشيخ الصدوق: من لا يحضره الفقيه ٥٤٥/٤، الشيخ الطوسي: الخلاف ١٥/١.
(٦) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ١٠ / ٥٨، ينظر، الحكيم، حسن: كتاب المنتظم لابن الجوزي٢٣٥.

أسفاره في المشارق والمغارب طلوع النجم في الغياهب. وهو من أكثر أعلام الفكر الإسلامي أثرا، وأجودهم إنتاجا، ولا زالت آثاره التي دبجها يراعه غرة ناصعة في جبين الدهر وناصية الزمن. ومن مميزاته إنه صنف في كل فروع الثقافة الإسلامية تصانيف عديدة، أصحبت المصدر والمرجع المؤول عليه عند الباحثين والمحققين[1].

وأهم تلك الآثار هي:

١- رجال الشيخ الطوسي
٢- اختيار معرفة الرجال
٣- الاستبصار
٤- أصول العقائد.
٥- الاقتصاد الهادي إلى طريق الرشاد
٦- أنس الوحيد
٧- الإيجاز في الفرائض.
٨- التبيان في تفسير القرآن،
٩- تلخيص كتاب الشافي في الإمامة: لعلم الهدى السيد المرتضى.
١٠- تمهيد الأصول: شرح لكتاب جمل العلم والعمل) لأستاذه السيد المرتضى
١١- تهذيب الأحكام.

المذهب الحنفي

ينسب إلى أبي حنيفة النعمان بن ثابت بن زوطي بن ماه المولود في الكوفة سنة ٨٠هـ وقد تفقه فيها وكانت دراسته وتلقيه للفقه عن شيخه حماد بن أبي سليمان ت١٢٠هـ (تلميذ إبراهيم بن يزيد النخعي ت٩٦هـ)، وقد توفي أبو حنيفة في بغداد سنة ١٥٠ هـ[2].

وتتلمذ أيضا على الإمام جعفر الصادق، وعلى أبيه الإمام محمد الباقر ع، وعلى زيد بن علي، وقد أكثر تلميذاه أبو يوسف ومحمد بن الحسن الشيباني من الرواية عن الصادق عليه السلام في مسنديهما لأبي حنيفة وكان أبو حنيفة معتزا بالسنتين اللتين درس فيهما على الإمام الصادق عليه السلام وقد عبر عنهما بقوله: لولا السنتان لهلك النعمان). وكانت طريقة أبي حنيفة في الاستنباط الأحكام الشرعية على ما نقل عنه من الأخذ بكتاب الله فإذا لم يجد فيه أخذ بسنة رسول الله صلى الله عليه وآله المتواترة، أو ما اتفق علماء الأمصار على العمل بها، أو ما رواها صحابي أمام جمع منهم ولم يخالف فيها أحد، فإذا لم يجد ذلك أخذ بإجماع الصحابة، فإذا لم يجد ذلك اجتهد وعمل بالقياس، فإذا قبح القياس عمل بالاستحسان. وكان تشدده في عدم العمل بالسنة سببا في كثرة أخذه بالقياس والاستحسان والاجتهاد بالرأي وقد اشتهر قول الصادق عليه السلام في رد القياس ونفيه عن أن يكون مصدرا من مصادر التشريع إن دين الله لا يصاب بالعقول، وإن أول من قاس إبليس قال: أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين)[3]. ونتيجة لذلك المنهج الفقهي فقد حدثت بين أبي حنيفة وبين علماء عصره منازعات، ومن ذلك ما حدث من وحشة ونفرة بين أبي حنيفة وبين عظماء فقهاء أهل الكوفة، كسفيان بن سعيد الثوري، لأن أبا حنيفة من أهل الرأي وسفيان من أئمة الحديث، وشريك بن عبد الله النخعي قاضي الكوفة المتوفى سنة ١٧٧ هـ ومحمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى المتوفى سنة ١٤٨ هـ وكان من أصحاب الرأي وهو الذي يقول الثوري فيه وفي ابن شبرمة فقهاؤنا ابن أبي ليلى وابن شبرمة)، وقد طعن الظاهرية بالمذهب الحنفي بأنه فلسفة فارسية، ورمى ابن حزم أبا حنيفة وأتباعه بالكلام القارص فوصف أقوال أبي حنيفة وأتباعه بالكذب وبالكلام الأحمق البارد، وسدد الخطيب البغدادي سهامه في تأريخه بعبارات خشنة عليه وعلى أتباعه[4].

وقد روي عنه تلاميذه في الحديث مسانيد عديدة بلغت على ما يحكى خمسة عشر مسندا، منها مسند القاضي أبي يوسف يعقوب المتوفى سنة ١٨٢ هـ ومسند محمد بن الحسن الشيباني المتوفى سنة ١٨٩ هـ وغيرها جمعها قاضي القضاة محمد الخوارزمي المتوفى سنة ٦٦٥ هـ في كتاب واحد أسماه جامع المسانيد)، ولكن ابن خلدون يذكر أن الأحاديث المروية عن أبي حنيفة تبلغ سبعة عشر حديثا أو نحوها، ومسائل الفقه عند الحنفية ثلاثة أقسام[5]:

الأول: الأصول، وهي المسائل التي رواها الثقات عن أبي حنيفة أو أحد تلاميذه كأبي يوسف وزفر ومحمد بن الحسن الشيباني وغيرهم ممن سمع من نفس أبي حنيفة وتسمى بظاهر الرواية وقد جمعها محمد بن الحسن المذكور في كتب ستة تعرف بكتب ظاهر الرواية أو مسائل الأصول، وعن هذه الكتب أخذت جمعية مجلة الأحكام العدلية أكثر مسائلها المدونة فيها.

الثاني: النوادر، وهي المسائل التي رواها الموثوق بهم عن أبي حنيفة أو عن أصحابه، ولكن لم تشتهر روايتها

(١) الشيخ الطوسي: الرسائل العشرة ٧، وينظر سيرته وعصره ومؤلفاته، الحكيم، حسن: الطوسي ٨٩.

(٢) الكركي، علي بن الحسين ٩٤٠ هـ (جامع المقاصد في شرح القواعد، تحقيق ونشر: قم، مؤسسة آل البيت ع لإحياء التراث) ٢٠/١.

(٣) أسد حيدر: الإمام الصادق والمذاهب الأربعة ٥٥٦/٢.

(٤) الخطيب: تاريخ بغداد ١٩٩/١، المحقق الكركي: جامع المقاصد ٢٣/١.

(٥) ابن خلدون ٧٣٢ -٨٠٨هـ): تاريخ ابن خلدون ٩٦/٣، المحقق الكركي: جامع المقاصد ٢٤/١.

وتسمى بكتب النوادر أو مسائل النوادر، ككتاب أمالي محمد في الفقه.

الثالث: الفتاوى، وهي المسائل التي أفتى بها مجتهدوالحنفية المتأخرون فيما لم يرووا فيه رواية عن أبي حنيفة ولا عن أصحابه، ولكن كانت الفتوى تخريجا على مذهبه، ويقال إن أول كتاب عرف في هذا القسم -أعني فتاوى الحنفية - هو كتاب النوازل) لأبي ليث السمرقندي المتوفى سنة ٣٧٦هـ[١].

وقد كان لأبي حنيفة تلاميذ شاع ذكرهم وولوا لبني العباس القضاء، فخدموا مذهب أستاذهم بما استطاعوا من نفوذ، وأشهر تلاميذه هم: أبو يوسف مؤلف كتاب الخراج) الذي تناول فيه الدستور المالي للدولة الإسلامية فقها مجردا، وكذلك محمد بن الحسن الشيباني، له كتب ستة، جمع فيها مسائل الأصول في مذهب إمامه، وهي: المبسوط الأصل) والجامع الصغير، والجامع الكبير والزيادات والسير الصغير والسير الكبير، وهذه الكتب سميت بكتب ظاهر الرواية لأنها رويت عنه برواية الثقات، وقد جمع هذه الكتب الستة الحاكم[٢].

الخوارج

أساس نشأة الخوارج بعد موقعة صفين حيث تبرءوا من علي عليه السلام وشهدوا عليه بالكفر، والحرورية: طائفة من الخوارج والنسبة إلى حروراء قرية بظاهر الكوفة، فإنهم اجتمعوا فيها أول أمرهم وخالفوا عليا عليه السلام فنسبوا إليها[٣].

دفن الإمام علي عليه السلام سراً لأجل أن لا تمتد إليه يد الخوارج وبني أمية وكان قبره مختفيا إلى مجيء الصادق عليه السلام إلى الكوفة فزاره واخبر أصحابه بموضع القبر[٤].

وكانوا إذا أصبحوا لعنوا عليا في مساجدهم[٥]. وذكر ابن البطريق في العمدة أحصى ما قتل الحجاج صبرا مائة وعشرين ألفاً أكثرهم خوارج[٦].

وسموا أيضا بالخوارج والمحكمة: خروجهم على أمير المؤمنين عليه السلام والذي له سموا محكمة وإنكارهم الحكمين وقولهم لا حكم إلا لله[٧].

وبعد اندثار القسم الكبير من هذه المذاهب بقيت مذاهب أخرى منها ما شاع في أقطار خاصة بعيدة عن مركز الدولة كالأباضية: وهم أتباع عبد الله بن أباض الخارجي المعروف المتوفى سنة ٨٦ هجرية في عهد عبد الملك بن مروان، وقد وجدت الحركة الاباضية تربتها الخصبة في بلاد العرب، وبخاصة في عمان، حيث أصبحت بتوالي الزمن المذهب السائد بها، ودخل هذا المذهب المغرب وانتشر بين البربر[٨].

القدرية

هم قوم قالوا بأن كل أفعالهم مخلوقة لهم وليس لله قضاء ولا قدر وفي الحديث: لا يدخل الجنة قدري، وهو الذي يقول: لا يكون ما شاء الله ويكون ما شاء إبليس[٩].

وهم الجبرية الذين ذهبوا إلى أن أفعال العباد خيرها وشرها من عند الله سبحانه وتعالى وهما صنفان صنف يقول ليس للعبد قدرة على الفعل أصلاً وصنف يقول: له قدرة علية وإذا توجهوا قدرتهم إلى الفعل بادرت القدرة الإلهية إليه لتجده[١٠].

ويذكر المازندراني بأنهم مجوس هذه الأمة ولم يعترفوا بان أنفسهم فسروا القدرية بما ينفي القدر وما وجدنا نظيرة في كلام العرب[١١].

الزيدية

يرجع الزيدية إلى إمامة زيد[١٢]. بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب كانت ولادته سنة ٧٦ من الهجرة وبلغ من العمر ٤٦ سنة وقتل بسهم لخمس بقين من المحرم سنة ١٢٢. فهو أخو محمد الباقر وعم جعفر الصادق، وهو الذي تنسب إليه الزيدية، وقد بايعه ناس كثير من أهل الكوفة وطلبوا منه ان يتبرأ من الشيخين أبي بكر وعمر لينصروه، فقال: كلا، بل أتولاهما. فقالوا: إذن نرفضك، فقال: اذهبوا فأنتم الرافضة، فسموا رافضة من حينئذ[١٣].

وذكر ابن عساكر بسنده عن شيوخه قال: قال ضمرة: سميت الرافضة عندما أتوا إلى زيد فقالوا سب أبا بكر وعمر نقوم معك وننصرك فأبى فرفضوا ذلك فسموا يومئذ روافض فالزيدية لا تستحل الصلاة خلف الشيعة[١٤]. ويعد أبو البركات عمر بن إبراهيم بن حمزة الحسيني شيخ الزيدية بالكوفة[١٥].

---

(١) المحقق الكركي: جامع المقاصد ٢٥/١.

(٢) المحقق الكركي: جامع المقاصد ٢٦/١.

(٣) الشيخ الصدوق: من لا يحضره الفقيه ٥٤٥/٤.

(٤) الشيخ الصدوق: من لا يحضره الفقيه ٥٨٦/٤.

(٥) هاشم البحراني: حلية الأبرار ١٤١.

(٦) ابن البطريق: يحيى بن الحسن الحلي الاسدي ٦٠٠هـ): عمدة عيون صحاح الأخبار في مناقب إمام الأبرار قم، مؤسسة النشر الإسلامي) ٤٦٩.

(٧) عبد الله الحسن: المناظرات في الإمامة قم، نشر أنوار الهدى، مطبعة مهر، ١٤١٥هـ) ٧٩.

(٨) الطوسي: الخلاف ٤٢٥.

(٩) الشيخ الصدوق: من لا يحضره الفقيه ٥٤٥/٤.

(١٠) المازندراني ١٠٨١هـ): شرح أصول الكافي ٤٥٢/١١.

(١١) المازندراني: شرح أصول الكافي ٤/٥.

(١٢) ابن الأثير: ١٥٤/٢، ا ابن عساكر: ١٥٤/٣، الذهبي: تهذيب التهذيب ٢٦٣/٤.

(١٣) ابن عساكر: ١٥٥/٣.

(١٤) ابن عساكر: تاريخ دمشق ٤٧٢/١٩.

(١٥) السمعاني ٥٦٢ هـ الإمام أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي: أدب الإملاء والاستملاء، تقديم عبد الله عمر البارودي لبنان -مركز الخدمات والأبحاث الثقافية دار بيروت) ٥١.

وذكر أبو الفرج الأصفهاني عن شيوخه قال: كتب أبو حنيفة إلى إبراهيم يشير عليه أن يقصد الكوفة ليعينه الزيدية. وقال له: ائتها سرا فان من هاهنا من شيعتكم يبيتون أبا جعفر فيقتلونه أو يأخذون برقبته فيأتونك به[١]، وقال القاضي النعمان المغربي في شرح الأخبار أبو عبد الله الحسن بن صالح بن حي الهمداني الثوري الكوفي المولود سنة ١٠٠ همن زعماء الفرقة البترية من الزيدية توفي مختفيا في الكوفة سنة ١٦٨[٢].

وجاءت طائفة وقالوا: نحن نتولاهما ونتبرأ ممن تبرأ منهما فقبلهم فقاتلوا معه فسموا زيدية[٣].

وروى زيدُ، عن أبيه علي بن الحسين وعن أبان بن عثمان وعبيد الله بن رافع وعروة بن الزبير، وروى عنه محمد بن شهاب الزهري وذكريا بن أبي زائدة وخلف، وروى له أبو داود الترمذي والنسائي وابن ماجه. وذكره ابن حبان[٤] حيث قال: رأى جماعة من الصحابة، قيل لجعفر الصادق بن محمد الباقر: أن الرافضة يتبرءون من عمك زيد، فقال: برئ الله ممن تبرأ من عمي، كان والله أقرانا لكتاب الله وأفقنا في دين الله وأوصلنا للرحم، ما ترك فينا لدنيا ولا لآخره مثله[٥].

المرجئة:

والمرجئة هم فرقة من فرق الإسلام يعتقدون انه لا يضر مع الإيمان معصية ولا ينفع مع الكفر طاعة[٦].

وسموا مرجئة لاعتقادهم أن الله أرجأ تعذيبهم على المعاصي أي أخره، وقيل: لتأخيرهم العمل بالسنة[٧].

ومن مرجئة الكوفة: ذر بن عبد الله الهمداني ومسعر بن كدام الهلالي وعمر بن ذر الهمداني وحماد بن أبي سليمان الأشعري وأبو حنيفة وزهير بن معاوية الجعفي ومحمد بن خازم أبو معاوية الضرير وأبو يحيى الحماني وأبو يوسف القاضي[٨].

قال أبو الفرج الأصفهاني في مقاتل الطالبين عن محمد بن الحسين الخثعمي قال: حدثنا احمد بن حازم قال: حدثني أبو نعيم: أن مسعر بن كدام كتب إلى إبراهيم بن عبد الله يدعوه إلى أن يأتي الكوفة ويعده أن ينصره وكان مسعر مرجئا فلما شاع

(١) أبو الفرج الأصفهاني ٤٥٦): مقاتل الطلابيين قم - إيران- مؤسسة دار الكتاب للطباعة والنشر منشورات المكتبة الحيدرية ومطبعتها في النجف ١٣٨٥ هـ- ١٩٦٥م) ٢٤٣.

(٢) القاضي النعمان المغربي: شرح الأخبار٣/٢٩١.

(٣) زيد ابن علي: مسند زيد ابن علي ١٠٤.

(٤) ابن حبان: الثقات ٨/١٦٤.

(٥) زيد ابن علي: مسند زيد ابن علي٤٦.

(٦) الحقق الاردبيلي: مجمع الفوائد ١١/٨٣.

(٧) محمد بن جرير الطبري الشيعي: المسترشد ٢١٠.

(٨) محمد المازندراني: شرح أصول الكافي ٢/٢٣١.

ذلك عاتبته المرجئة[٩].

الفطحية:

فرقة قالت بإمامة عبد الله بن جعفر الصادق بعد أبيه عليه السلام، واعتلوا في ذلك بأنه كان أكبر ولد أبي عبد الله عليه السلام، وأن أبا عبد الله عليه السلام قال: الإمامة لا تكون إلا في الأكبر من ولد الإمام. وقال الشيخ المفيد في رد الفطحية: إن عبد الله كانت به عاهة في الدين، وورد أن الإمامة تكون في الأكبر ما لم يكن به عاهة. وسموا بالفطحية أو الافطحية لان رئيسا لهم من أهل الكوفة يسمى عبد الله بن أفطح، ويقال أنه كان أفطح الرجلين أي عريضهما، ويقال بل كان أفطح الرأس، ويقال أن عبد الله كان هو الافطح[١٠].

الظاهرية

وهو مذهب داود بن علي بن خلف الأصفهاني المعروف بالظاهري، ولد بالكوفة سنة ٢٠٢ هونال رئاسة العلم في بغداد وكان شافعيا في أول أمره ثم استقل بمذهب خاص، وانتقل سنة ٢٢٣ هإلى نيسابور ثم رجع منها إلى بغداد، وتوفى فيها سنة ٢٧٠ هـ وقد اتخذ لنفسه مذهبا خاصا وهو العمل بظاهر الكتاب والسنة ما لم يقم دليل على خلافهما، وكان لا يرى البحث عن علل الأحكام، وإن لم يجد نصا عمل بإجماع الصحابة أو إجماع العلماء. وقد أبعد عن استنباطاته القياس والاستحسان والتقليد والرأي، وادعى أن في عمومات النصوص من الكتاب والسنة ما يكفي لكل سؤال. ويقول ابن فرحون المتوفى سنة ٧٩٩ هـ عن المذهب الظاهري ومؤسسه داود بن علي: إن داود بن علي المتوفى سنة ٢٧٠ هكثر أتباعه، وانتشر مذهبه ببلاد بغداد وبلاد فارس، وأخذ به قليلون من أهل افريقية وأهل الأندلس، وهو ضعيف الآن أي في عصر ابن فرحون.

وذكر ابن خلدون ٨٠٨هـ)[١١]: إن مذهب أهل الظاهر قد أندرس اليوم بدروس أئمته، وإنكار الجمهور على منتحليه، ولم يبق إلا في الكتب المجلدة، وربما عكف عليها كثير من الطالبين الذين تكلفوا انتحال هذا المذهب ليأخذوا منه مذهبهم وفقههم، فلا يظفرون بطائل، ولا ينالون إلا مخالفه الجمهور وإنكارهم عليهم، وربما عدوا مبتدعين بنقلهم العلم من الكتب من غير مفتاح المعلمين. وقد فعل ذلك ابن حزم بالأندلس على علو مرتبته في حفظ الحديث، وصار إلى مذهب أهل الظاهر، ومهر

(٩) أبو الفرج الأصفهاني: مقاتل الطلابيين ص٢٧٢.

(١٠) ابن طاووس، عبد الكريم الحسني ٦٩٣ هـ): فرحة الغري في تعيين قبر أمير المؤمنين علي عليه السلام تحقيق السيد تحسين آل بيت الموسوي، مركز الغدير للدراسات الإسلامية) ٢٩٠.

(١١) ابن خلدون: المقدمة ٢٣١.

فيه باجتهاد زعمه، وخالف إمامهم داود، وتعرض للكثير من أئمة المسلمين، فنقم لذلك الناس عليه، وأوسعوا مذهبه استهجانا وإنكارا، وتلقوا كتبه بالإغفال والترك، حتى أنه ليحظر بيعها بالأسواق، وربما مزقت في بعض الأحيان، وهذا الطبري أبو جعفر محمد بن جرير المتوفى سنة ٣١٠ أخذ الفقه يد داود، درس فقه أهل العراق ومالك والشافعي على رجاله، ولم ير أحمد فقيها وما رآه إلا محدثا، ولذا شنعوا عليه بعد موته، وبعد أن نضج كان له مذهب في الفقه اختاره لنفسه، وكان له أتباع، من أجلهم المعافى النهرواني القاضي، وكانت له ولأتباعه مؤلفات فقهية لكنها لم تصل إلينا، ولولا تفسيره الجليل ما وصل إلينا هذا القدر القيم من مذهبه، ولم نقف حتى الآن على أنه كان له أتباع موجودون بعد القرن الرابع[١].

المذهب المالكي

ينتسب إلى مالك بن أنس بن مالك الاصبحي المتولد عام ٩٣ هبالمدينة ووالده غير إنس الصحابي المعروف، وتوفي عام ١٧٩، تفقه على الإمام جعفر الصادق عليه السلام وربيعة الرأي التابعي وسمع الحديث من نافع مولى ابن عمر والزهري، وأشهر تلاميذه الشافعي ومحمد بن الحسن الشيباني وأسد بن الفرات وعبد الله بن وهب بزغ نجمه في زمن المنصور، وقد ألح عليه المنصور أن يكون مفتي الدولة وقد ضمن له حمل الرعية على آرائه الفقهية، ولعل ذلك كان من المنصور حدا من تمادي انتشار مدرسة الإمام الصادق عليه السلام) وانتشر مذهبه في الأندلس وشمال أفريقيا. ولمالك كتاب أسماه الموطا)[٢].

المبحث الثاني: النظام السياسي في عهد الإمام علي عليه السلام:

المطلب الأول: حكومة الإمام علي عليه السلام:

إن الوقوف على أرضية لفهم أبعاد حكومة الإمام علي عليه السلام ورصد ستراتيجيته وايديولوجيته وفق المعطيات التاريخية يوقفنا على حقيقة أن الحكومة في عهده كانت حكومة دينية متكاملة تعتمد على الرؤية الإلهية الشمولية لأبعاد الكون والإنسان والحياة وانه لا مجال لحكم العقل النظري والعملي بدون الرجوع إلى النص القرآني والنص النبوي وهذا لا يعني بالضرورة عدم إعمال الاستشارة والخبروية البشرية من قبل المتخصصين في تلك الدولة وخصوصاً في المجال العسكري والإداري حيث تضمنت الوثيقة التي بعث بها الإمام علي عليه السلام إلى مالك الاشتر رضي الله عنه والي مصر) أهم الأفكار والمفاهيم السياسية والاقتصادية وشؤون الحكم والإدارة بل من أهم الركائز الفكرية والسياسية والإدارية التي بعث بها رئيس دولة إلى أحد ولاته[٣]

وقد تضمن هذا العهد رسم الخطوط العريضة للسياسة العامة التي يجب أن ينتهجها الحكام في كل عصر على أساس المنطلقات الإنسانية الإسلامية التي تهدف إلى تنظيم الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية تنظيماً دقيقاً وبناء العلاقات الداخلية في المجتمع الإسلامي على أساس العدل والحرية والمساواة سوءاً كان تعامل الحاكم مع الشعب أو مع رجال السلطة وفق سياسة تكفل للجميع الاستقرار والتقدم، وكما يوضح أسس العلاقات الخارجية مع العدو والصديق بشكل يحفظ للأمة كرامتها وعزتها واستقلالها التام. والذي يمكن ملاحظته في الدولة التي تشكلت في عهد الإمام علي عليه السلام هي دولة قائمة على النظام المركزي وهو خضوع المرؤوس للرئيس وتلقي تعليماته وتنفيذها من جهة أخرى[٤] لكن طبيعة الدولة في ذلك الوقت لم يكن يشبه الدولة كما هي عليه الآن نظراً لأن الإقليم الممتد عبر مئات أو آلاف الكيلومترات لم يكن من السهل إيجاد وحدة متماسكة في الدولة الكبيرة ولأن النظام الجديد والاتصالات وانعدام الوسائل المطلوبة كان أحد الأسباب الرئيسية مما لم يمكّن الحكومة من إعطاء تعليماتها في كل لحظة للمرؤوسين والولاة والموظفين الحكوميين، لذا فقد كانت الدولة الإسلامية تعتمد (نظام اللاحصرية) أو (عدم التمركز) بحيث يتمتعون العمال الموظفون بصلاحيات واسعة جداً تخولهم اتخاذ القرار السياسي ولكن الخليفة يستطيع أن يتدخل في كل وقت في هذه الصلاحيات ومن هنا فهي - الدولة - تختلف عن (نظام اللا حصرية الحديثة) (deconcentation) تكون صلاحيات السلطة المحلية أوسع بكثير مما هي عليه اليوم ثم هي غير ثابتة لأن الخليفة يستطيع التدخل فيها عندما يشاء[٥] فالدولة كانت أشبه بالكونفدرالية لكنها وحدوية تخضع لنظام تشريعي مركزي من قبل الحكومة الموجودة في العاصمة التي يقيم فيها الإمام علي وهي الكوفة آنذاك وكذلك يوجد ترتب هرمي تسلسلي فالسلطة تتمثل في خليفة المسلمين وهو الإمام علي عليه السلام الذي يصدر القرارات التشريعية ثم تنزل إلى السلطة التنفيذية والقضائية ثم إلى بقية المؤسسات والأدنى فالأدنى.

وإن من أهم الصعوبات التي تواجه الحاكم بعد توليه زمام الأمور هي مسألة تشكيل الوزارة وتوزيع الحقائب

(١) العلامة الحلي: منتهى المطلب ٢/ ١٣٣.

(٢) العلامة الحلي: منتهى المطلب ٢/ ١٣٥.

(٣) الشيخ علي الصلاح: الحكم والإدارة ص ٤٣.

(٤) الإمام علي ومشكلة نظام الحكم ص ١٢٢.

(٥) الإمام علي ومشكلة نظام الحكم ٤٠.

الوزارية في الدولة وتطعيم مؤسسات الدولة بالعناصر الكفاءة المختلفة والقادرة على تصريف الأمور[١]

لذلك كان على الإمام علي عليه السلام أن يغير البناء السياسي والتشكيلة الوزارية التي كانت من قبله. فاعتمد على عزل العناصر الفاسدة واستبدل مكانها العناصر المؤمنة وأصحاب السمعة الجيدة في الوسط الاجتماعي والسياسي والذين كان لهم بعد ذلك دور كبير في دولته وحكومته أمثال مالك الاشتر وعمار بن ياسر وعبد الله بن عباس وغيرهم من الوجوه المعروفة بالورع والإيمان.

ثم انه من الركائز الأخرى التي انتهجها هو عدم انحجابه عن الناس والمؤمنين والجلوس لسماع مشاكلهم مع السلطة والموظفين مما يكون ذلك سبباً للمتابعة فضلاً عن وضع شرطه سرية ترصد حركات الموظفين والعمال الحكوميين مما يساعد الإمام على سياسة العزل والتنصيب وأيضا التأمين الاجتماعي للعاطلين والعاجزين عن العمل بحيث يصرف لهم من بيت المال راتباً شهرياً وإنعاش الاقتصاد عبر نظام اقتصادي يتيح للفرد التملك ضمن سياسة إحياء الأراضي فكان الإمام علي عليه السلام يشجع على التنمية الاقتصادية والزراعية فضلاً عن إلغاء المحسوبية والرشوة والطرق الملتوية في نظام الحكم الجديد واعتماده على المساواة وإلغاء الحواجز العنصرية في سبيل مجتمع متكامل.

المطلب الثاني: الشريعة ونظام الحكم:

إن جدل الدين والدولة كان قديماً قدم الإنسان بحيث لم تكن هناك فترة من الزمن خلت من هذا الصراع والجدل حول طبيعة الحكم في الدول هل الدين منفصل عن الدولة أو أن الدين والدولة مندمجان معاً يقول أحد الباحثين: فالاتجاهان الأساسيان هما الاتجاه البشري والاتجاه الإلهي، الأول يرى أن التشريع يضعه البشر بينما الثاني يرى أن التشريع يجب أن ينزل من عند الله عز وجل[٢].

ومن المعروف أن حكومة علي عليه السلام كان شكلها هو دمج الدين والدولة وعدم فصلهما فالدين هو المحرك للدولة وهو الذي يحدد سياستها الداخلية والخارجية، وكذلك النظام الاقتصادي والقضائي والعسكري والاجتماعي لأن طبيعة الدين الإسلامي هو دين ودولة وليس مجرد دين منعزل عن الممارسة السياسية لأن ذلك يبدو واضحاً من حاكمية الرسول صلى الله عليه وآله على الناس وبناء الدولة الإسلامية التي كانت تنطلق من رؤية سياسية عالمية ويدلنا على ذلك أن الصراع العسكري والحروب والغزوات والأسر، والعهود، والمواثيق، وجبي الأموال، وغير ذلك ما يدل على أن الفكر الديني هو فكر سياسي ديناميكي وليس مجرد طقوس ومراسيم فردية، وهذا يدل على أن الدين لا ينفصل عن الدولة والدولة لا تنفصل عن الدين وكل منهما يتحرك نحو الآخر كذلك في حكومة الإمام عليه السلام حيث أن كل أمر أو نهي صادر عن الخليفة (الشرعي) يمثل أمراً أو نهياً مولوياً لأنه يدور مدار الحكم الشرعي ويرى الإمام عليه السلام أن المشرّع الوحيد هو الله عز وجل وقد انزل دينه كاملاً إلى رسوله صلى الله عليه وآله فجاء القرآن شاملاً لكل ما يلزم البشرية التي لم يتركها الله مهملة وقد بلغ الرسول صلى الله عليه وآله عن ربه كل ما كلفه بتبليغه فلم يقصر[٣]

وقد جاء عنه عليه السلام في نهج البلاغة (إن الله لم يخلقكم عبثاً ولم يتركككم سدى ولم يدعكم في جهالة ولا عمى وانزل عليكم الكتاب تبياناً لكل شيء وعمر فيكم نبيه أزماناً حتى أكمل له ولكم فيما انزل من كتابه دينه الذي رضي لنفسه وأنهى إليكم على لسانه محابه من الأعمال ومكارهه ونواهيه وأوامره وألقى إليكم المعذرة واتخذ عليكم الحجة وقدم إليكم بالوعيد وأنذركم بين يدي عذاب شديد)[٤]

فمن هذا النص نستطيع أن نستنتج أن الحكم ينطلق من رؤية قرآنية إلهية معتمدٌ على النص القرآني والسنة النبوية التي وفرت للإنسان كل ما يحتاجه بعلاقته مع الله والإنسان والطبيعة

فكانت رؤية الإمام هو أن الدولة الإسلامية تحقق للإنسان سعادته الدنيوية والأخروية لأنها منسجمة مع نظام الكون الكلي الذي ينساب من الأفق الأعلى لسد حاجة الإنسان فالشريعة توفر القواعد العامة والخطوط الرئيسية عن أصول الحكم مع القابلية على انسجامها مع الزمان والمكان[٥].

فقد جاء الإسلام كما يقولون بشريعة، أي بعدة أحكام قانونية تنظم شؤون الحياة الدنيا (من أحكام مدنية وجنائية وأحوال شخصية... الخ) لذلك كان طبيعياً أن يعنى بإقامة دولة وحكومة تعنى بتنفيذ تلك الأحكام القانونية ولقد قال تعالى **﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾**[٦]

فالحكومة الإسلامية في عهد الإمام علي عليه السلام هي انعكاس عن الشريعة وهي (أي الشريعة) انعكاس عن الله فالله متمثل في حكم الدولة والدولة تمثل الله هكذا كانت رؤية الإمام في الحكم وانه لا يتخذ قراراً أو حكماً إلا ويقدم أمر الدين على كل حساب

(١) المصدر نفسه ص ١٢٣.
(٢) المصدر نفسه ٤٣.
(٣) ا لمصدر نفسه ١٢٣.
(٤) نهج البلاغة ٣٥/١.
(٥) عبد الحميد متولي: مبادئ نظام الحكم في الإسلام ص ٢١.
(٦) سورة المائدة/ ٥٠.

ولذلك ربما يوصف بأنه غير سياسي كما جاء قبل عن بعض الكتاب بقوله: كان الإمام علي بطلاً شجاعاً مظفراً في جميع المعارك التي قادها أو خاضها قبل خلافته أما في خلافته فقد فارقه الحظ في الحرب وكذلك لم يكن الإمام علي عليه السلام موفقاً في السياسة.

إن السياسة أمر دنيوي مبني على الدهاء والمكر بعيداً عن المرؤة والصدق وكان من سوء حظ الإمام علي عليه السلام أن كان خصومه وخصوصاً معاوية وعمرو بن العاص رجالاً دنيويين لا يبالون أمراً ولا نهياً من أوامر الدين ونواهيه ولقد كان الإمام علي يعرف ذلك من نفسه ومن خصومه ويعد ذلك سبباً لقلة نجاحه في السياسة والحكم[١].

إذن فالسياسة التي تتعارض مع مفهوم من مفاهيم الدين لا يكون لها أي اعتبار في نظر الإمام لأنه كان يريد أن يحقق ظل الله في الأرض وإقامة العدل والحرية وهي تتنافى مع قيم الفساد والرذيلة والخبث والدهاء والمكر والوصولية على حساب الدين والإنسان، فمعاوية كان يصل إلى أهدافه وغاياته عبر منظومة سياسية جوهرها مفهوم الغاية تبرر الوسيلة مع عدم عنايته بقيم الدين لأنه رجل دنيوي بخلاف الإمام علي عليه السلام فانه كان يرى أن الحكومة الإسلامية لابد أن تصل إلى غايتها بوسيلة شرعية شريفة معتمدة على الأخلاق والقيم العليا وانه لا يعتمد في سياسته على المنطق البراغماتي (الذرائعي) الذي يبرر الوسائل من اجل الوصول إلى الغاية مثلما اعتمده خصمه معاوية بن أبي سفيان في حكومته ولذلك نرى أن الإمام ينتقد هذا المبدأ بشدة ويقول: (ليس معاوية بأدهى مني ولكنه يغدر ويفجر)[٢].

أي أن معاوية يتبع سياسة تبرير الوسائل وهو ما يتنافى ورؤية الإمام لأنها تختلف مع المفاهيم الإسلامية إذ يعتقد أن الدين هو غاية الغايات وأن السعادة الحقيقية للمجتمع البشري تكمن في التمسك بمبادئ الدين الحنيف.

إن علاقة الحاكم بالشعب في حكومة الإمام علي عليه السلام كانت تنطلق من رؤية أن الحاكم هو أحد أفراد المجتمع واحد منتسبيه بل أحد أكثر المجتمع مسؤولية وواجبية لأنه مسئول أمام الله وأمام المجتمع بأكمله وبذلك تلغى كل الحواجز والاعتبارات التي تحول دون الاتصال بالشعب وتفهم مشاكله ومسؤولياته ولم يكن منصبه في الدولة يمثل له شيئاً ما لم يحقق الهدف منه وهو العدالة بين المجتمع وإقامة الحق بينهم وهو بذلك يمثل الطراز الأعلى والأمثل من الحكام الذي نادى الحكماء والفلاسفة به ويحدثنا ابن عباس عندما لقي الإمام علياً عليه السلام في الكوفة وهو يخصف نعله فقال له الإمام: يا بن عباس ما قيمة هذا النعل فقال لا قيمة له فقال الإمام علي: إن هذا النعل أفضل من خلافتكم عندي إلا أن أقيم حقاً أو ادفع باطلاً[٣].

ورغم المصاعب التي لاقاها الإمام من شعبه وخذلانهم له إلا انه لم يكن سبباً في عدم الرأفة بهم والتودد إليهم، رغم دعائه بان يستبدله الله بغيرهم ويستبدلهم بغيره إلا انه كان مثالاً في كل الميادين سواء السياسية والاقتصادية والاجتماعية بل حتى مع المعارضة كما في معركة الجمل والخوارج أمثال الزبير وطلحة وعائشة زوج النبي صلى الله عليه وآله حيث قادوا حملة عسكرية ضده متهمينه بقتل عثمان ورغم كل ذلك نجده يتعامل معهم بمنطق إنساني بحت ولم يستخدم نفوذه السياسي عليهم فحاورهم وألقى الحجج عليهم ولم يبدأ بقتالهم حتى بدؤوا بقتاله وبعد انتصاره عليهم تجاوز عنهم وارجع عائشة مع أخيها في عدة من النساء[٤].

إن الإمام كان ينطلق من رؤية أن البشر متساوون في الخلقة فهو لا يفرق بينهم في المعاملة والحقوق على أساس اللون أو القومية أو الغنى والفقر وكلهم سواء أمام القانون ولم يستثنِ نفسه من الدستور حيث ما نراه اليوم في الحكومات من امتيازات وحصانات خاصة للرئيس أو الحاكم، فهو يعتبر نفسه مسئولاً أمام القانون في حالة تقصيره.

وعدم أدائه للحكم بصورة صحيحة بل يعتبر ذلك خيانة عظمى كما جاء في نهج البلاغة وعند اقتراح الناس عليه أن يميز في العطاء بين الكبير والصغير يقول (لو كان المال مالي لسوّيت بينهم فكيف والمال مال الله)[٥].

ويعقب أحد الكتاب على هذا المقطع فيقول: ومن هذا الاعتبار كان موقفه من طلب عقيل وعبد الله بن جعفر المساعدة، وكان موقفه عند ما أبلغ أهل الكوفة انه لن يأخذ حصته من العطاء حيث قال: (يا أهل الكوفة إن خرجت من عندكم بغير رحلي وراحلتي وغلامي فأنا خائن)[٦].

إنها كلمة عظيمة تستحق الوقوف عندها والتأمل في هذا الرجل العادل الذي لم يخرج من الدنيا إلا بمدرعته التي طالما كان يستحي من ترقيعها ويؤكد على انه غير مستبد وليس مرتشيا ولا يرضى بالفساد والخيانة مطلقاً. ونراه مع (عبد بن زمعة) عندما أتاه يطلب مالاً إذ قال له: إن هذا المال ليس لي ولا لك إنما هو فيء للمسلمين[٧].

(١) عمر فروخ: تاريخ الفكر العربي إلى أيام ابن خلدون ص ٥٦.
(٢) نهج البلاغة ٣٤/١.
(٣) نهج البلاغة ٦٥/١.
(٤) ابن قتيبة: الإمامة والسياسة ص ٨٩.
(٥) نهج البلاغة ٢٣٤/١.
(٦) الإمام علي ومشكلة نظام الحكم ص ٧٨.
(٧) المصدر نفسه ص٩٠.

فهو يرى انه موظف مسئول أمام أموال المسلمين وأنها مسؤولية مقدسة لا يمكن التفريط بها وأن التقصير خيانة وجريمة كبرى والحفاظ على أموال المسلمين واجب مقدس.

والوثيقة التي بعثها الإمام علي عليه السلام إلى مالك الاشتر تشعرنا بأنه كان ناذراً نفسه لخدمة الشعب فيقول فيها (واشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم واللطف بهم ولا تكونن عليهم سبعاً ضارياً تغتنم أكلهم فإنهم صنفان أما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق، يفرط منهم الزلل وتعرض لهم العلل ويؤتى على أيديهم في العمد والخطأ فأعطهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحب أن يعطيك الله من عفوه وصفحه فانك فوقهم ووالي الأمر عليك فوقك، ولا تنصبن نفسك لحرب الله فانه لا يَدَيْ لك بنقمته ولا غنى بك عن عفوه ورحمته) في هذا المقطع من عهد الإمام عليه السلام لمالك الاشتر نجد معاني سامية وعظيمة قلما توجد في حاكم من الحكام. إن هذه الوثيقة هي إعلان عن حقوق الإنسان والمواطنة تجاه السلطة أو الحكومة بشكل عام وإعطاء الحقوق للفرد تجاه الحاكم والحاكم تجاه الفرد وتحديد مسؤوليتهما تجاه الآخر وبهذا تحكي الوثيقة مدى العلاقة الإيجابية التي تربط الرعية بالحاكم والعكس وهذا عين ما نراه من الممارسة العملية التي كان الإمام علي عليه السلام يمارسها تجاه أفراد شعبه من الرأفة والحنو والتودد حتى مع ألد أعداءه بل مع قاتله عبد الله بن ملجم. وكان يشارك الناس في طعامهم وشرابهم وكان يتفقد الأرامل والأيتام والمعوزين ليلاً حاملاً كيس الدقيق على ظهره وطائفاً بين الأزقة ليتفقد من لا عهد له بالقرص ولا طمع له بالشبع كان يعطف عليهم كالأب على أولاده بل أكثر، وهم ربما لا يعرفون انه الخليفة ولكن كل ذلك من أجل أن يكون واقعياً في خطابه وكلماته وإيمانه بالله ورغم كل سلبيات الرعية وتقصيرها تجاهه إلا انه لم يكن سبباً ليحول دون الرأفة والرحمة بهم وإن رجلاً مثل الإمام علي ينزل من علياء سلطته إلى بيوتات الناس ليسأل عنهم وعن أحوالهم ويتفقد صغيرهم وكبيرهم حريٌ أن يكون قدوة ومثالاً لباقي الحكام ولكل الإنسانية[١]

إذ أن قائد دولة عظمى بل أعظم دول الأرض في عهده الذي يتحمل مئات المسؤوليات الثقيلة في إدارة بلاده يشعر بمسؤوليته إلى هذه الدرجة بحيث يخرج إلى شيخ مقعد أعمى ويدير شؤونه بنفسه الشريفة ويضع ذلك جزءاً من برنامجه اليومي وبعيداً عن كل أنواع التكبر والاستنكاف يطهر وينظف ذلك الشيخ ويستبدل أثوابه كل يوم بغيرها ويطعمه حتى يشبع، نعم لا وجود لهكذا معاملة وسلوك في تاريخ كل القيادات إلا القيادات الإلهية فقط

(١) الشيرازي: الحكومة الإسلامية في عهد أمير المؤمنين٩ ص ٧٦.

المطلب الثالث: الرؤية السياسية في الحكم

إن الرؤية السياسية التي تبناها الإمام عليه السلام في دولته كانت ذات آليات متطورة تبعاً للمنهج الإسلامي وتصوراته ولما يمتلك من خبرة دينية وعسكرية واجتماعية جعلته مؤهلاً لأن يكون صاحب منهج متميز في إدارة شؤون الدولة عسكرياً واجتماعياً لذا (يرى أمير المؤمنين أن بقاء القيادة السياسية الأولى للدولة في العاصمة وعدم خروجها للحرب أصلح فبقاؤها لإدارة شؤون الجنود والعسكر في الولايات وإدارة بيت المال واقتصاديات الدولة وبسط العدل والقضاء والعمل لاستقرار الدولة والمجتمع وتقدمهما بينما تذهب القيادات العسكرية لمحاربة العدو وقتاله)[٢] لذا ربما عورض على هذه السياسة من قبل مجتمعه الذي يرى انه لابد من الخروج معهم لتعزيز موقفهم الميداني في الحرب لكنه كان يردهم ويوبخهم عن رفضهم لسياسته التي يراها الأصلح في تطور مجتمعهم خصوصاً والدولة عموماً فيقول (ما بالكم لا سددتم لرشد ولا هديتم لقصد أفي مثل هذا ينبغي لي أن اخرج وإنما يخرج في مثل هذا رجل ممن أرضاه من شجعانكم وذوي باسكم ولا ينبغي لي أن ادع الجند والمصر وبيت المال وجباية الأرض والقضاء بين المسلمين والنظر في حقوق المطالبين ثم اخرج في كتيبة اتبع أخرى أتقلقل تقلقل القدح في الجفير الفارغ وإنما أنا قطب الرحى تدور علي وأنا بمكاني. إلى أن يقول: هذا لعمر الله الرأي السوء)[٣]

إن رئيس الدولة لابد أن يقيم في العاصمة لأنه يمثل هرم النضوج السياسي الذي إذا ما تعرضت الدولة لحادث لابد أن يجد حلاً سياسياً سريعاً للخروج منه. وهذا ما هو عليه الآن الدول المتقدمة والحديثة في أن الرئيس يعتبر الموظف الأعلى وتناط به مسؤولية الإدارة العامة للدولة. ويلخص أحد الكتاب أهم الركائز الأساسية لسياسة الدولة الإسلامية عند الإمام علي عليه السلام:

أولاً: إدارة كل شؤون الدولة.

ثانياً: منع الاضطراب السياسي للدولة في حالة الهزيمة وانتقال السلطة عند موت رئيس الدولة.

ثالثاً: منع التمرد والعصيان والانقضاض على الدولة وحفظها على ذلك.[٤] هذا ونجد أن الإمام كان موضع استشارة الخلفاء في الدولة الإسلامية حيث استعان عمر بن الخطاب إبان خلافته على المسلمين برؤية الإمام السياسية حينما أراد قتال الفرس فقال الإمام له: (فكن قطباً واستدر الرحى بالعرب وأصلهم دونك نار الحرب فإنك إن شخصت من هذه الأرض

(٢) الإستراتيجية العسكرية عند الإمام علي عليه السلام ص ٧٨.
(٣) المصدر نفسه ص ١٢٣.
(٤) المصدر نفسه ص ١٣٠.

انتقضت عليك العرب من إطرافها وأقطارها حتى يكون ما تدع وراءك من العورات أهم إليك مما بين يديك) وكذلك مشاورة عمر بن الخطاب له في الخروج إلى غزو الروم فيقول (إنك قد تسر إلى هذا العدو بنفسك فتقلقهم فتنكب لا تكن للمسلمين كانفه - عاصمة - دون أقصى بلادهم ليس بعدك رجع يرجعون إليه فابعث لهم رجلاً محراباً واخفر معه أهل البلاء والنصيحة فان اظهر الله فذاك ما تحب وإن تكن الأخرى كنت رداءً للناس ومثابة للمسلمين[١] وهذا يدل على أن نظرة الإمام للدولة كانت تتحرك وفق معطيات سياسية دولية رشحته أن يكون قائداً للدولة رغم كثرة المعارضين على سياسته ومنهجه ورغم عدم وعي القاعدة الجماهيرية بالمشروع السياسي الذي رسمه الإمام للدولة الإسلامية الكبرى.

إن الإمام علي عليه السلام كان من الممكن أن يمارس الأوتوقراطية أو الحكم الواحد ضد الشعب كما مارسه بعده الحكام والملوك ضد شعوبهم حتى ينبسط له الحكم والإدارة بصورة أكثر لكنه كان يرى أن الحكم لابد أن ينطلق من رؤية إنسانية بحتة أساسها العدل وأن لا يتجاوز الثوابت الإسلامية للحاكم مهما كانت العقبات السياسية والاجتماعية والاقتصادية فكان من اللازم أن تحصل إخفاقات سياسية أو عسكرية نتيجة عدم نضوج الوعي الجماهيري ولذلك نرى أن الإمام أعلن عن ذلك بصراحة بعد اتهامه بأنه عديم الخبرة بالحرب قائلاً: (وأفسدتم عليّ رأيي بالعصيان والخذلان حتى لقد قالت قريش أن ابن أبي طالب رجل شجاع ولكن لا علم له بالحرب لله أبوهم وهل أحد منهم اشد لها مراساً وأقدم فيها مقاماً مني لقد نهضت فيها وما بلغت العشرين وها أنا قد ذرفت على الستين ولكن لا رأي لمن لا يطاع)[٢].

وهكذا نرى الإمام في أكثر من موقف أن رؤيته السياسية تنطلق من معرفة جيوسياسية تجعل رأيه لا يجانب الصواب، وأن أفقه المعرفي جعله قادراً على استيعاب مجمل القضايا التي كانت تمس الدولة على المستوى الخارجي والداخلي كما نرى ذلك في قضية غزواته وحروبه في صفين والبصرة والنهروان وكيف انه وصلت بشائر الانتصار عندما اقترب القتال إلى رواق معاوية ولكن الدهاء السياسي لمعاوية ورفع المصاحف جعل من المقاتلين ينقسمون فيما بينهم ويوقفون القتال ويؤثرون على قرار الإمام عليه السلام ومثل هذه الوقائع والهزائم كثير مما يؤكد قصور القاعدة الجماهيرية وعدم النضوج الفكري السياسي

المطلب الرابع: الحكومة ومشروع السلام

إن قضية السلام لم تكن غائبة عن حكومة الإمام علي عليه السلام بل كانت حاضرة في كلماته وخطبه وممارسته في الحكم نظراً لما يمثل السلام من أهمية عالمية في الإسلام السياسي وتأثيره على الشعوب وتقدمها فشغلت باله وهمه في تحقيق هذا المشروع ضمن متطلبات الدولة وأهدافها.

فالإمام لم يكن يرى من الحرب إلا وسيلة لتحقيق هذا المشروع لتسود قيم الإنسانية والعدل في المجتمع الإسلامي وليحقق اكبر قدر ممكن من عزة وكرامة الأمة الإسلامية واستخدم لغة الحوار السياسي الذي يخلق جواً من الود والرحمة مما يذيب حواجز الخلافات والتشنجات فعالج قضية التحكيم بين الدولة الإسلامية ومعاوية على أساس الرضا بميثاق السلام الذي عقده بالرغم من عدم قناعته الشخصية بالتحكيم بالرغم من قناعته كذلك من خديعة معاوية لهم فيجيب الإمام على الجبهة التي تعارض الموافقة على قبول التحكيم بأنه - التحكيم - وثيقة سياسية صدرت من القائد الأعلى للدولة مفادها الوفاء لهم بعدم قتالهم وتأجيل ذلك إلى إشعار آخر ومستدلاً بقوله تعالى (وافوا بالعقود) (وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الإيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم وكيلاً إن الله يعلم ما تفعلون).

وأبى أن يرجع وخرجت عليه الخوارج بسبب خلافهم حول الصلح ورغبتهم في فسخ وثيقة التحكيم وعدم احترامها فلم يغير من مبدئيته ذرة[٣] فلم يكن من الممكن أن يخالف القانون الذي يؤمن به وينطلق به في رؤيته السياسية ولأن تداعيات الأحداث السياسية والاجتماعية ومدى تأثيرهما على سيسيولوجيا المجتمع جعلت من الإمام يتعامل مع الأحداث بواقعية مع ما يمتلكه من صعوبات حقيقية تجاه مجتمعه الذي كان يراهن على فشله وعدم قدرته على استيعاب مشروعه الذي انفق عليه الغالي والنفيس ويلخص بعض الباحثين في هذا الصدد أهم الآراء التي تدور حول السلام عند الإمام عليه السلام استناداً إلى الوثيقة التي بعثها إلى مالك الاشتر:

أولاً: الموافقة على السلام والصلح وعدم رفضه بشرط أن يكون فيه رضا الله سبحانه وتعالى فهذا الشرط الرئيسي.

ثانياً: أهمية قبول السلام والصلح تزاد بالمنافع التي يوفرها هذا السلام من راحة للجيش والجنود والارتياح النفسي والاطمئنان للحاكم واستقرار الوضع الأمني للبلد.

ثالثاً: الحذر الشديد من العدو بعد الصلح.

رابعاً: الوفاء بالمعاهدات وبنود واتفاقيات السلام وعدم نكثها.

خامساً: عدم نكث ومكر وخداع وخيانة العدو وإنّ احترام المعاهدات والمواثيق والعمل بها مشترك بين كل الناس ولا يختص بها المسلمون.

(١) المصدر نفسه ص ٢١٣.

(٢) نهج البلاغة ص ٢٥٤.

(٣) الإستراتيجية العسكرية عند الإمام علي عليه السلام ص ٢١١.

سادساً: يجب أن تكون المعاهدات ومعاهدات السلام صريحة وواضحة ودقيقة وإحكام بنود الصلح حتى لا تؤوّل، والالفاظ يجب أن تكون معينة ومقطوع ما تعنيه.

سابعاً: عدم تأويل بنود وألفاظ الصلح والمعاهدات بالتأويلات الخفية لصالحك من جانبك.

ثامناً: عدم فسخ العقد والمعاهدة بغير حق بسبب ازمات الدولة.[١]

وهذه المبادئ هي ما تضمنته الوثيقة المبعوثة إلى والي مصر مالك الاشتر مبتدئاً بقوله عليه السلام (لا تدفعن صلحاً دعاك إليه عدوك لله فيه رضا فإن في الصلح دعة لجنودك وراحة من همومك وأمناً لبلادك ولكن الحذر الحذر من عدوك بعد صلحه فإن العدو ربما قارب ليتغفل فخذ بالحزم واتهم في ذلك حسن الظن إلى آخره...).[٢]

المطلب الخامس: فصل الجهاز القضائي عن الأجهزة الأخرى

إن من يقرأ حكومة علي عليه السلام قراءة موضوعية يرى فيها من التطور والتحديث ما هو موجود في الدول الحديثة التي جاءت عبر تراكم خبرات بشرية على مدى مئات أو آلاف السنين ويقول أحد الكتاب: (درج القدماء في الشرق والغرب على تولية القضاء رجالاً ذوي صفات تعنيها مصالح هؤلاء الحكام بأوسع معانيها ومصالح الطبقات التي تتبادل مع حكام هذه المصالح حتى إذا ساوى القانون بين طبقات الناس عطل القاضي هذه المساواة وحكم بهوى الحكام وأصحاب الامتيازات وتاريخ أوربا في القرون الوسطى يفيض بأخبار هذا النوع من القضاة وكذلك تاريخ الشرق العربي أيام الأمويين والعباسيين والمماليك والأتراك وغيرهم وأن الجرائم التي ارتكبها القضاة والمنحرفون هنا وهناك باسم العدالة لَممَّا يخزي جبين الإنسانية وليستوجب اللعنة على رؤوس أولئك القَضاة[٣]

إن ما فعله الإمام عليه السلام هو فصل الجهاز القضائي عن السلطة وتأمين الحصانة الكاملة للقاضي بحيث لا يتأثر بحكمه القضائي أي جهة أخرى وهذا بالضرورة يعطي للقانون صفة النزاهة والموضوعية في الأحكام الصادرة من ذلك الجهاز ويؤمن للمجتمع الحقوق المدنية الكاملة وكانت السلطات الثلاث التشريعية والتنفيذية والقضائية موحدة غير منفصلة في زمن علي فإذا به يخطو خطوة مبدئية إلى فصل السلطة القضائية عن السلطة التنفيذية كي يكسب القضاة حصانة ويؤمنهم من عقاب السلطة[٤]

(١) الإستراتيجية العسكرية عند الإمام علي عليه السلام ص ٢٣١.
(٢) نهج البلاغة ص ٢٣٤.
(٣) جورج جرداق: على صوت العدالة الإنسانية ص ١٢٣.
(٤) المصدر نفسه ص ٢٣١.

وهذا ما نراه في الوثيقة المبعوثة لمالك الاشتر بقوله عليه السلام (وأعطه - القاضي - من المنزلة لديك ما لا يطمع فيه غيره من حاجتك ليؤمن بذلك اغتيال الرجال له عندك وانظر في ذلك نظراً بليغاً)[٥]

وبهذا يكون الإمام أحد المؤسسين للدولة المدنية الحديثة التي تكون فيها الحريات مكفولة مع حماية القانون. وهذا ما نراه بالضبط في الدولة الحديثة عند (مونتسكيو) قبل الثورة الفرنسية التي دعا فيها إلى المناداة بمبدأ الفصل بين السلطات حتى لا تتأثر كل سلطة بالأخرى ولم يقصد (مونتسكيو) الفصل التام بين السلطات وإنما الفصل المرن بمعنى أن يكون هناك توازن وتعاون بين السلطات الثلاث في تحقيق الصلاح العام[٦]

وبذلك دعا إلى أن القانون هو الوحيد القادر على حماية الأفراد من السلطة التي تمثل الجهاز التشريعي والتنفيذي وحماية من الأفراد أنفسهم وبذلك يكون المؤسس الأول لدولة القانون وهو ما نراه من سيادة المساواة والعدل في دولته التي لم يشهد التاريخ مثلها وهكذا يكون علي عليه السلام قد سبق إنسان العصور الحديثة.[٧]

ولما كان الجهاز القضائي له من الأهمية بمكان كان علي عليه السلام يوليه عناية خاصة لأنه يعتقد أن العدل بين أفراد المجتمع هو المنطلق الأساسي في إيصال المجتمع إلى تحقيق الأمن والسعادة الحقيقيتين فترجم ذلك عبر وقوفه أمام المحكمة بوصفه متهماً من قبل بعض الرعية والذي زرع بذلك الثقة في نفوس الناس بالعدل وعدم المحسوبية في حكومته (سلام الله عليه) وعدم ممارسة سطوته ونفوذه بوصفه حاكماً ورئيساً ليدشن بذلك بعد الرسول صلى الله عليه وآله سيادة القانون وفصله عن بقية الأجهزة في الدولة وإعطاءه كياناً خاصاً مقدساً لا يجوز التعدي عليه، ولو كان الرئيس أو الخليفة وكذلك ممارسته العملية في المجتمع بوصفه قاضياً يساعد القوة القضائية على حل المشاكل القانونية والجنائية لأن عليا اشتهر على لسان الرسول صلى الله عليه وآله والأصحاب في انه أقضاهم وبذلك كان القضاء قوة حقيقية لضبط المجتمع في عهده وفض النزاعات وحل المشكلات والأزمات الاجتماعية ورغم ذلك كان متسامحاً هو بالذات عند التعرض لقضية الحكم القضاء فنراه لم يقض في أية حادثة مطلقاً دون تحقيق وحتى بعد التحقيق لم يظهر رأيه بصورة فورية بل كان يؤخر إظهار رأيه قدر المستطاع رأفةً ورحمةً بالمتهم[٨]

(٥) نهج البلاغة ص ٢٣٤.
(٦) النظم السياسية والحريات العامة ص ٣٤٢.
(٧) جورج جرداق: على صوت العدالة الإنسانية ص ١٣٢.
(٨) الشيرازي: الحكومة الإسلامية في عهد أمير المؤمنين٩ ص ٣٢١.

المطلب السادس: المعارضة ونظام الحكم

كان الإمام علي يتعامل مع مفهوم المعارضة بوصفه حالةً طبيعية ضرورية في المجتمع الإسلامي من منطلق إنساني بحت فحرص على محاورتهم وبحث أسباب معارضتهم له مع تأمين الحماية الكاملة لهم ولأسرهم فنحن نرى تعامله مع معارضيه في حرب الجمل وحرب الخوارج حيث كان يذهب مع وفد من الصحابة أمثال عبد الله بن عباس أو مع مالك الاشتر أو غيرهم لفض النزاع والوصول إلى حل يضمن لهم ممارسة حياتهم الطبيعية داخل مجتمعهم فنرى ذلك في حرب الجمل عندما أراد الإمام علي قتالهم قال لطلحة عندما كان يريد قتاله: أولم تبايعني يا أبا محمد طائعاً غير مكره قال طلحة بايعتك والسيف على عنقي قال ألم تعلم إني ما أكرهت أحداً على البيعة ولو كنت مكرهاً أحداً لأكرهت سعداً وابن عمر ومحمد بن مسلمة أبوا البيعة واعتزلوا فتركتهم[١].

النص هنا يوضح لنا أن الإمام كان لا يسلب من أحد إرادته أو مواطنته أو عطاءه رغم معارضته له وعدم الرضا بحكومته وهذا يدل على أن حكومته كانت حكومة شعبية منطلقة من آراء الأغلبية بالحكومة وأنه يتعامل بما نسميه اليوم (بالديمقراطية) (democracy) وهي حكومة الشعب وليس حكومة (اوتوقراطية) كما كان يحكمها معاوية مثلاً فحكومة علي عليه السلام كانت على طرفي نقيض من الحكومات التي سبقته وكذا حكومة معاوية التي كانت تتعامل مع المعارضين بالقتل والسجن والتعذيب كما هو الحال مع حجر بن عدي وجماعة من شيعة علي عليه السلام عندما قتلهم معاوية. وهكذا نرى أن توفير الأمن والحماية والسلام لأفراد الدولة والمنتسبين إليها يعد ضرورة حتمية فمهما كان المواطن معارضاً أو كارهاً للحكم ليس للحكومة عليه من سبيل إلا اللهم بأن يقود حرباً مسلحة ضد الحكومة فحين ذلك يجب على الحكومة ردع المتمردين وحفظ كيان الدولة وسيادتها الذي هو حق طبيعي لكل حكومة وبذلك كان المعارضون يلجئون إلى معاوية أو يذهبون إلى أقطار أخرى كالمدينة واليمن إلا أن معاوية حاول إغراء الكثير منهم وضمهم إليه عن طريق المال مما سبب بعض الضعف في حكومة الإمام علي، وقد انضوى تحت لواء معاوية كل من كان حاقداً على الإمام[٢]

ومن الذين التجئوا إلى معاوية عبيد الله بن عمر بن الخطاب عندما خاف من إجراء القصاص والعقوبة بحقه من قبل الإمام لقتله الهرمزان غلام أبي لؤلؤة قاتل عمر وكذلك مصقلة بن هبيرة الشيباني عامل علي في إحدى خطط فارس وسبب ذلك أن مصقلة كان قد اشترى أسرى الخوارج من جماعة بن راشد السامي ولكنه التوى بما شرطه على نفسه من ثمنهم فلما طالبه بن عباس بأداء الدين قال لو طلبت أكثر من هذا المال إلى ابن عفان ما منعني إياه[٣].

وهكذا نرى صلافة المعارضين على الحكومة وتجرؤها في القتل والسرقة والارتشاء وغير ذلك فحكومة الإمام كانت صريحة في رفض أمثال هؤلاء من الحقائب الوزارية وإقالتهم حتى وإن التجئوا إلى معاوية الخصم الأول.

لأن المعارضة لم تنطلق من رؤية موضوعية في معارضتها بل كانت ميولاً وأهواء ونزوات شخصية على حساب الشعب وهذا ما رفضه الإمام علي عليه السلام لأنه كان همه الأول والأخير هو سعادة الشعب وتوفير القسط الأكبر من العدل والحرية[٤]

بل أكثر من ذلك حيث نرى أمير المؤمنين عليه السلام يحترم حقوق الإنسان السياسية إلى درجة منقطعة النظير عن غيره من الحكام والرؤساء كعفوه عن الخونة أمثال (عبيد الله بن الحر الجعفي)[٥]

عندما التحق بجيش معاوية في جوف الليل ذلك حين كانت نيران حرب صفين مشتعلة. وفي قوانين الحروب يعاقب مثل هذا الخائن بالإعدام واستطاع أن يقدّم عبيد الله خدمات كبيرة لمعاوية أما زوجته فكانت في الكوفة وتناهى إلى أسماعها خبر هلاك عبيد الله في المعركة فاعتدت عدة الوفاة وبعد ذلك تزوجت برجل من أهل الكوفة في الوقت الذي كان عبيد الله حياً في الشام وحين اخبر بزواج زوجته خرج من الشام ليلاً ووصل إلى الكوفة ودخلها ليلاً وتوجه فوراً إلى بيت زوجته وبعد حوار قصير أخبرته بزواجها، والتقى عبيد الله بأمير المؤمنين منكسا رأسه وعبيد الله يعلم أن علياً رجل الحق والعدل فانتهز الفرصة وقال هل أن خيانتي تمنعك من العدل يا أمير المؤمنين فأجابه الإمام واحضر زوجته وحل له مشكلته الشخصية إن هذا الموقف من حاكم الدولة تجاه أحد أفراد شعبه يعكس مدى عمق الوعي الحقوقي والإنساني تجاه الشعب من قبل علي عليه السلام بل تجاه الأعداء والمجرمين والخونة كل ذلك في سبيل تحقيق العدل والحرية والسلام.

إن ضمان الحريات في حكومة الإمام علي عليه السلام تعتبر من أهم الركائز التي بنيت عليها الدولة إذ أن المواطن يعيش في دولة تضمن للفرد الحرية التعبيرية والنقدية للسلطة والحكومة وقد جاء أن أحد الخوارج سب أمير المؤمنين بقوله (قاتله الله ما

(١) الدكتور نوري جعفر: علي ومناوؤه ص ١٥٦.
(٢) المصدر نفسه ص ١٦١.
(٣) المصدر نفسه ص ١٧٠.
(٤) جورج جرداق: علي صوت العدالة الإنسانية ص ٢٣١.
(٥) الحكومة الإسلامية في عهد أمير المؤمنين ص ١٤٥.

أفقهه) وهمّ أصحابه بقتله فردع أصحابه عن ذلك وأكد لهم القاعدة الشرعية التي تأمر بعقوبة متناسبة مع الجريمة حتى ولو كانت واقعة على رئيس الدولة مع عدم نسيان الحث على العفو فقال: رويداً إنما هو سب بسب أو عفو عن ذنب[1]

وفي كلام آخر له يقول (لا تتبع الذنب العقوبة واجعل بينهما وقتاً للاعتذار) إن الارتقاء بهذه الحريات وضمانها للشعب لهو جديرٌ بان يكوّن شعباً يحرص على قائده وحاكمه ولكن لم يكن هذا الشيء بل على العكس كانت نتيجته السب والشتم والقتل من قبلهم له. إن الإمام كان واثقاً من أن إعطاء الحريات وضمانها للآخرين سوف يعزز الثقة المتبادلة بينه وبين الشعب عموماً والمعارضين خصوصاً وهو بذلك يؤكد على أحقية الإنسان في حرية حركته السياسية وتعبيره الشخصي ولا يقف حائلاً دون إبداء ما يختلج في ضمائرهم وصدورهم ورغبة في تحقيق مجتمع مثالي تسوده الأخلاق والعدل والقانون.

الخلاصة:

استعرضنا في المباحث السابقة (النظام السياسي في الكوفة في عهد الإمام علي عليه السلام) وبعد تفكيك العنوان وتوزيع البحث على مباحث والوقوف على بعض الحقائق التاريخية التي لا يمكن لأي باحث الهروب منها بل لابد من إبرازها ولاسيما ما يخص تراث أهل البيت عليهم السلام، وقد تبين لنا النتائج التالية:

١- نحن بحاجة أن نبحث في سيرة.. الإمام علي.. الإنسان.. الاقتصادي.... الديمقراطي... السياسي... الفيلسوف... الحاكم... الاجتماعي... القاضي

٢- لم يحكم الإمام علي عليه السلام بالمعجزة ، بل حكم بالوسائل الطبيعية ، ورغم هذا لم يذكر التاريخ إن هناك طبقة من الشحاذين أو من اللصوص في عهده

وإن التاريخ لا يستطيع أن يذكر وجود فقير واحد في عهد الإمام علي أيام حكمه الدولة الإسلامية، إذن: لماذا انعدم الفقر في عهد الإمام علي عليه السلام..

٣- إن عهد الإمام أو دولة الإمام تختلف عن حكومة باقي الخلفاء كل السياسات وهذا من باب اختلاف الاجتهادات.

٤- إلغاء التمايز الطبقي: ساد في عهد « عمر » و« عُثمان » تمايز طبقي في توزيع الثروة من بيت المال، حتى أصبح الناس قسمين، قسم في عداد الأثرياء وما فوق ذلك، وآخرون لا يرتفعون عن مستوى الفقر كثيراً! حتى تسبَّبت هذه السياسة الظالمة في استقراء تفاوت طبقي خطير.. فأعلن الإمام علي عليه السلام إلغاء التمايز الطبقي بكلّ أسبابه، وعهد إلى التسوية بين الناس في العطاء، فالناس عنده سواسية كأسنان المشط وانقطعت آمال الطبقة الغنية التي لم تنظر للدنيا إلا في منظار مادّي. فقال عليه أفضل الصلاة والسلام: « ألا لا يقولنَّ رجال منكم غداً قد غمرتهم الدنيا، فاتَّخذوا العقار وفجَّروا الأنهار وركبوا الخيول الفارهة، واتَّخذوا الوصائف الروقة، فصار ذلك عليهم عاراً وشناراً، إذا ما منعتهم ما كانوا يخوضون فيه، وآصرتهم إلى حقوقهم التي يعلمون، فينتقمون ذلك ويستنكرون، ويقولون: حرمنا ابن أبي طالب حقوقنا!»[1].

٥- علي عليه السلام وعلاج الفساد الإداري: لم يحابي الإمام علي عليه السلام يوماً مع أقرب الناس إليه ، وكانت سياسته في معالجة الفساد الإداري واحدة من أروع وأدق وأشد السياسات التي اتبعها حاكم في عصر من العصور ، وقد اتبع سياسة صارمة مع أقرب الناس إليه ، وما قصة الإمام مع أخيه عقيل إلا دليل ساطع على عدالة الإمام وتقديمه مبدأ العدل على عوامل القربى والإخوة في.

٦- متابعة الإمام أمور الولاة في أقاليمهم: لقد تابع الإمام علي عليه السلام سيرة الأمراء وكانت له آذان ضاغية لكل شاردة حول سيرة الولاة ، لا ينفع أحد أنه معين من قبل الإمام علي نفسه ولا تنفع ورقة التزكية من الإمام علي نفسه فإذا ما أساء أحد استخدام صلاحياته تكون الخطوة اللاحقة مباشرة متابعة الموضوع مع رجل من خواصه يحمل كتابين.. كتاب لعزل الوالي إن صحت الشكوى والمظلمة وكتاب في تعيين الوالي الجديد في نفس الوقت..

٧- معالجة الإمام الفساد من رأسه، والسرعة والحسم المباشر في علاج الفساد ومعاملة القريب والبعيد بقانون واحد..

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الخلق محمد وعلى اله الطيبين الطاهرين

المصادر والمراجع:

- القران الكريم:
- ابن الأثير، بن أبي الكرم ٦٣٠هـ:
١- الكامل في التاريخ (بيروت، دار الكتاب العربي١٩٦٧)
- ابن حجر، أبو الفضل احمد بن علي العسقلاني ٨٥٢ هـ):
٢- تهذيب التهذيب: ١٤ جزء(بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر)
٣- الإصابة في تميز الصحابة: تح: عادل احمد (بيروت، دار الكتب العلمية ١٤١٥هـ)
- ابن أبي الحديد، عبد الحميد٦٥٦هـ:
٤- شرح نهج البلاغة (دار إحياء الكتب العربية) تح: محمد أبو الفضل إبراهيم
- الحلي، يحيى بن سعيد ٦٠١-٦٩٠هـ:

(١) علي ومشكلة نظام الحكم ص٢١١.

٥- الجامع للشرائع، تح: جمع من الفضلاء، قم، مؤسسة سيد الشهداء العلمية ١٤٠٥هـ).
- الحكيم حسن عيسى:
٦-الشيخ الطوسي (النجف الاشرف، مطبعة الآداب ١٩٧٥م).
٧- كتاب المنتظم لابن الجوزي (بيروت، عالم الكتب ١٩٨٥م).
- الشايب، جواد كاظم:
٨- الكوفة في تاريخ ابن عساكر(النجف الاشرف، مركز الهدى الثقافي،٢٠٠٩م)
٩- التيارات الإسلامية المتطرفة حتى نهاية العصر العباسي(النجف الاشرف، مركز الهدى الثقافي،٢٠٠٩م)
- الشريف المرتضى، علي بن الحسين ٤٣٦):
١٠- رسائل المرتضى(قم، دار القرآن الكريم ١٤٠٥هـ)
- الطبري محمد بن جرير-٣١٠هـ)
١١- تاريخ الأمم والملوك (بيروت، مؤسسة الاعلمي)
- الطوسي، الشيخ أبو جعفر محمد بن الحسن ٤٦٠ هـ):
١٢- الخلاف (قم، مؤسسة النشر الإسلامي)
- ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن٥٧١هـ):
١٣- تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل أو اجتاز بنواحيها من وارديها وأهلها تح: علي الشيري (بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر ١٤١٥هـ)
١٤- الأربعين البلدانية بيروت، دار الفكر، ١٤١٣هـ ط١)
١٥- تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري جزء واحد (بيروت، دار الكتاب العربي ١٤٠٤هـ ط٣).
- ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم٢٧٦هـ):
١٦- الشعر والشعراء(بيروت، دار الكتب العلمية)
١٧- المعارف: تح: ثروة عكاشة (مصر، المؤسسة العامة للنشر والتوزيع)
- المفيد، محمد بن محمد النعمان بن المعلم بن عبد الله العكبري البغدادي٤١٣هـ)
١٨- جوابات أهل الموصل(تحقيق: مهدي نجف)
- ياقوت الحموي، شهاب الدين ابو عبد الله بن عبد الله الرومي البغدادي:
١٩- معجم البلدان (بيروت، دار إحياء التراث العربي ١٣٩٩)
- اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب-٢٨٤هـ):
٢٠- تاريخ اليعقوبي (بيروت- دار صادر).

* * *